تجليد
صالح الدقر
بيروت - المزرعة

808.06
Ta176nA
v.1
c.1

الدكتور أمجد الطرابلسي
استاذ بكلية الآداب في الجامعة السورية

دروس ومحاضرات بكلية الآداب

٢

نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب

في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا

الجزء الأول

اللغة والادب

مطبعة الجامعة السورية
دمشق ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بين يدي هذا الكتاب

هذه مجموعة دروس في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا حتى فجر النهضة الحديثة . والموضوع من المنهاج المقرر لشهادة الثقافة العامة، أي شهادة السنة الاولى التحضيرية بكلية الآداب . وقد سبق لي أن ألقيت على طلاب الشهادة المذكورة دروساً في هذا الموضوع فأخذ الطلاب عني بعض الأمالي والخلاصات وتوزعوها فيما بينهم . وقد اضطرني اليوم الى اعادة النظر في هذه الدروس وطبعها أني رأيت هذه الأمالي التي يتناقلها الطلاب مشحونة بالأغلاط مما ينقص الفائدة المرجوة من مثل هذه الدراسة .

واني لأرجو بعد اليوم — وقد أصبح هذا الكتاب في متناول الأيدي — أن ينتفع طلاب شهادة الثقافة العامة انتفاعاً كاملا بدراسة هذا الموضوع الذي هو دعامة أساسية في ثقافتهم الأدبية . والله الموفق .

دمشق : ٢٦ شهر ربيع الأول ١٣٧٤

٢١ تشرين الأول ١٩٥٤

أمجد الطرابلسي

المقدمة

لهذا البحث في منهاج السنة الأولى بكلية الآداب هدف مزدوج . فهو يرمي إلى أن يكوّن لدى الطلاب فكرة موجزة وواضحة عن بعض نواحي النشاط الفكري عند العرب حتى فجر النهضة الحديثة ؛ كما يرمي أيضاً إلى دلالة الطالب الجامعي على المراجع والمصادر الهامة التي هو بحاجة اليها لاستكمال أدوات بحثه.

أما الهدف الأول فلا حاجة إلى الإلحاح على بيان فائدته ؛ إذ أن هذا البحث من أهم نواحي تاريخ العرب الفكري ، ذلك التاريخ الذي لابدّ للطالب الجامعي من الاطلاع عليه اطلاعاً صحيحاً ليبقي مستقبلنا العلمي متصلا بماضينا أوثق اتصال.

وأما معرفة المصادر والمراجع فأمر لايستغني عنه طالب العلم وآلة لايمكن له بدونها أن يُسهم حقيقة في تقدم المعارف الإنسانية .

وطالب العلم مع حاجته إلى معرفة المراجع والمصادر ، يحتاج أيضاً إلى **معرفة أسلوب الرجوع اليها والاستفادة منها** ؛ إذ أنّ معرفة هذه الكتب الأساسية شيء ومعرفة طرق الاستفادة منها شيء آخر . وهذا مالا يمكن اكتسابه إلا بمعرفة مضمون هذه الكتب ولو إجمالاً ؛ كما أنه أمرٌ لابدّ فيه من الخبرة والممارسة الطويلة . وربّما أنفق الناشيء المبتدىء من وقته في جمع عناصر بحثه أو في مراجعة مسألة من المسائل أضعاف ماينفقه في ذلك الباحث الخبير المتمرّس.

ثم إنه لابدّ لطالب العلم أخيراً من أن تكون خبرته بالمصادر والمراجع **عميقة وشخصية** ، وذلك كي يستطيع الإفادةَ منها بنفسه وبدون كبير مشقة . ولايعدّ الباحث متمكّنا من أسلوب العمل إلاّ إذا كان في وسعه ان يعثر بنفسه على المصادر التي تقتضيه طبيعة بحثه الرجوع إليها .

لقد جرت العادة أن توصف البحوث العلمية القيمة بأنها **مبتكرة** ، وليس معنى ذلك أن صاحبها يجيء من عنده بكل شيء . بل ان البحث العلمي المبتكر هو في الحقيقة البحث المستوعب الذي لايتجاهل صاحبه شيئاً مما كتب قبله في موضوعه . وبغير هذا الاستيعاب العلمي الضروري لايمكن للبحث الجديد أن يسجّل في مضمار العلم خطوة التقدم التي لابد منها ليكون مبتكراً . ولهذا رُبّما صحّ أن يفضّل ، في منطق البحث العلمي ، الباحث الدؤوب الذي يعرف كيف يهتدي إلى مصادره بنفسه وكيف يستفيد منها بشكل منهجيّ — على الباحث الذي يعي في صدره علوماً كثيرة ولكنه يخطىء المنهج الصحيح كلما تصدّى للدراسة أو البحث .

❀ ❀ ❀

هذه — بإيجاز — الدوافع والاعتبارات التي اقتضت تسجيل هذا البحث في منهاج السنة الأولى بكلية الآداب وكانت سبباً في إنشاء هذه الدروس وإلقائها على طلبة السنة المشار إليها .

وقد حرصنا في هذه الدروس على بلوغ الهدف الذي تحدّثنا عنه آنفاً . فجرّدناها من طابعها النظريّ ماوسعنا ذلك ، متوّخين منها غالباً الفائدة العملية التطبيقية .

ونعتقد أن هذه الدروس لن تؤتي أكلها المرجوّ إلاّ إذا اعتاد الطلاب الرجوع إلى هذه الكتب بأنفسهم باحثين أوقارئين متصفحين . ولهذا ننصح الطلاب أن يبذلوا مافي وسعهم حتى يتعرفوا إلى هذه الكتب شخصياً في المكتبات العامة ولا سيما في مكتبة الجامعة .

❀ ❀ ❀

الباب الأول

التأليف في اللغة

تمهيد :

إن جمع اللغة وتثبيتها في الرسائل الجزئية المتفرقة أو في المعاجم الجامعة ذات الطرق المتنوعة يهمنا هنا أكثر من سواه من أنواع التصانيف اللغوية الأخرى . ذلك لان المعاجم هي المرجع الذي لاغنى عنه في كل بحث مهما كان نوعه ؛ بل هي المرجع الذي يستوي في الحاجة إليه الناشىء المتعلم والباحث المنقب . ولاريب في أن تنوّع المعاجم لدى الامة ، وتجددها من حين إلى آخر ، وذيوع استعمالها بين الافراد . دليل على حيوية هذه الامة وحيوية لغتها .

ان المعاجم هي مراجع قبل كل شيء، يُرجع إليها عند الحاجة ، وليست كتب قراءة أو تسلية . كما أنه لا حاجة بأحد إلى استظهار ألفاظ المعجم ، وليس الذي يحفظ المعجم سوى نسخة معجم جديدة . وليس يغني الامة كثيراً أن تزداد فيها نسخ المعاجم نسخةً او نسختين . **ولكن المعاجم كثيراً ما تكون مصادر للبحث ومستقى لمادته** ولاسيما في تاريخ اللغة وفقهها . ومعاجمنا المسهبة مثل **لسان العرب وتاج العروس** ، التي هي أشبه بالموسوعات منها بالمعاجم ، أبين دليل على ذلك .

وربما صلحت المعاجم أن تكون أحياناً **كتبا للقراءة والتسلية** ، اذا

كان المطالع مغرماً بهذا النوع من القراءة الجدّية ، على شريطة ألا تقتصر المطالعة على هذا النوع من الكتب ، وأن تكون القراءة للتسلية والكشف بالمصادفة لا للحفظ والاستظهار. وقد عرف عن كثير من الادباء ولوعهم بقراءة المعاجم ورغبتهم في الاستسلام إلى مفاجآتها الطريفة التي تكشف لهم عن كثير من أساليب اللغة وأسرارها . كيف لا ولغة الامة هي منطقها وفكرها مجموعين بين دفتي كتاب واحد ؟

ومعاجم اللغة — إذا استثنينا دوائر المعارف أو الموسوعات — على نوعين:

آ ـ **معاجم الألفاظ** : وهي تفيدنا مبدئياً في الكشف عن معنى لفظة من الألفاظ .

ب ـ **معاجم المعاني** : وهي تفيدنا مبدئياً في ايجاد لفظ لمعنى من المعاني يدور بخلدنا ولا ندري كيف نعبر عنه بدقة .

وسنخص كل نوع من هذين النوعين بفصل خاص .

الفصل الاول

معاجم الالفاظ

قلنا ان معاجم الالفاظ تفيد في الكشف عن لفظ من الالفاظ نجهل معناه كل الجهل ، او نعرفه بشكل غامض ونودّ لو نعرفه بشكل دقيق .

ولكن لمعاجم الالفاظ في اللغة العربية ـــ ولاسيما الكبيرة منها ـــ فوائد اخرى لاسبيل لاحصائها هنا ، يعرفها المتمرس بهذه المعاجم حق المعرفة : منها ضبط الالفاظ ، والاطلاع على تطوّر معاني المفردات من عصر الى آخر ، والكشف عن أعلام الأشخاص والقبائل والأماكن وضبطها ، وتحقيق كثير من الشواهد والروايات المتضاربة .

لقد جرى جمع ألفاظ اللغة العربية على **مراحل** ثلاث ، وإن شئت فقل على **أشكال** ثلاثة. **لان هذه الاشكال هي في الحقيقة متداخلة متعاصرة وليست مراحل متعاقبة تحدها الفواصل الزمنية الثابتة:**

المرحلة الاولى ـــ هي مرحلة تدوين ألفاظ اللغة وتفسيرها بدون

ترتيب. وقد جرى هذا الجمع بفضل نشاط الرواة والعلماء منذ أواخر القرن الهجري الأول وخلال القرن الثاني، أي في العصر الذي كان يجري فيه جمع الحديث والادب. وكان السماع عن الاعراب والاتصال المباشر بهم في صحرائهم أو حين قدومهم الى الامصار احد المصادر الاساسية التي اعتمدها الرواة في جمع اللغة. أما مصادرهم الأساسية الأخرى التي استنبطوا منها مفردات اللغة فهي القرآن والحديث والادب القديم بشعره وأخباره وأمثاله.

وكانت كلّ طبقة من الرواة تتلقف ما جمعته سابقتها من مفردات اللغة وتزيد اليه بجهودها الخاصة ثروة جديدة. ثم أخذ بعض الرواة يدونون هذا التراث اللغوي في رسائل مفرقة تمتاز بغناها كما تمتاز بطابعها الابتدائي العفوي البعيد عن التنسيق والترتيب.

ولعلّ كتاب **النوادر في اللغة** لأبي زيد الانصاري [1] خير ما بين أيدينا من كتب لغوية تمثل هذه المرحلة؛ إذ نرى المؤلف يورد فيه النصوص الشعرية والنثرية الملأى بالمفردات الغريبة النادرة فيشرحها ويعلق عليها بعض التعليقات اللغوية من غير ترتيب في إيراد النصوص أو ربط بين معاني الالفاظ.

---

(١) أبو زيد الأنصاري: سعيد بن أوس، من أكابر أئمة اللغة والرواية في البصرة، ومن أوثقهم، ولد سنة ١١٩ هـ وتوفي سنة ٢١٥ هـ. واياه يعني سيبويه في قوله «حدثني الثقة». له كتب طبع طائفة منها، أشهرها (النوادر في اللغة) طبع في بيروت في المطبعة الكاثوليكية بتحقيق سعيد الخوري الشرتوني عام ١٨٩٤ م.

وهذه أمثلة من هذ الكتاب تبيّن طريقة مؤلفه فيه .

« ويقال : ثوب : **مرهرهل** إذا أرقه نسّاجه فباعدبين خيوطه .ورأيت الرجلين **يهنهنان هنهنة** إذا تكلما بكلام يُسِرّانه من غيرهمالا يفهمه غيرهما . ويقال : في صدر فلان عليّ **دَغَل** أي شرّ . و **الدغدغة** أيضاً القوم يريدون خيانة الانسان أو عيبه ... ويقال **اعتنفت** البلد **اعتنافاً** إذالم يوافقك واستوخمته . ويقال : عرفتني **لانسأها** الله ، مهموز ، أي لاأطال الله أجلها . ويقال في مَثل : **سقط العشاء به على سرحان** [1] إذا طلب حاجة فوقع منها على داهية . ويقال : لم أجدعنده**أبعر** أي طائلاً .ويقال: **رجل أَبِلٌ** ، وقدأَبِلَ بالمال يَأْبَلُ أَبَلاً إذا لم يرض للمال بمرتع سَوْءٍ ولا مشرب سوء وأحسن رِعيتها إبلاً كانت أو شاءً . ويقال في مثل : **لابعدم عائش وُصلات** ، يقال هذا للرجل يُرْمِلُ [2] من المال والزاد فيلقى الرجل فينال منه الشيءَ بعد الشيء ، ثم الآخر حتى يبلغ أهله . ويقال في مثل : **نعيم كلب في بؤس أهله** — و**بِئْس** أهله و**بِئْس** أهله لغتان — ، يقال هذا للانسان اذا أكل من مال غيره؛واصله أن كلباً سمن وأهزل الناس فأكل الجيف حتى سمن ونعم وأهله بائسون . وقالوا : **الربع والربع** واحد في السنّ ،ولكنه دعي هبعاً لكثرة حنينه لايكاد

---

(١) السرحان : الذئب

(٢) أرمَل الرجل : افتقر .

يسكت . قال ابو حاتم ، وقال الاصمعي عن جبر بن حبيب أخي امرأة العجاج قال : الرُّبَع الذي نتج في الربيع ، والهُبع الذي نتج في الصيف فهو ضعيف فاذا مشى مع أمّه لم يطق المشي فأبطرته ذَرعاً [١] فهبع أي استعان بعنقه . ويقال في مثل : **ما أنت الا كابنة الجبل ، مرهما يقل تقبل** وذلك اذا تكلّمت فردّ عليك شيءٌ مثل كلامك وهو الصدى الذي اذا قلت شيئاً اجابك مثله ويقال: **أو زمت لله علي يميناً لا أفعل ذلك ايزاماً**، أي جعلت لله عليّ يميناً . ويقال : معه **زأرة** من الناس . أي جماعة ، وهي الابل والغنم العظيمة الضخمة الخ ... » [٢]

إن هذا النص يوضح طريقة ابي زيد الانصاري في نوادره كل التوضيح **فالمؤلف يسرد المفردات الغريبة والامثال النادرة بلا ترتيب ويشرحها شرحاً ، على ايجازه ، كافيا** . ومن السهل جداً ان نتبين انه **لا رابطة تربط بين هذه الامثال او هذه المفردات اللهم الا الغرابة والندرة** . ويخيل إلينا أن هذه الرسالة هي اصدق صورة لما كان عليه جمع اللغة في المرحلة الاولى .

المرحلة الثانية — . وهي مرحلة تدوين ألفاظ اللغة مُرتبةً في رسائل متفرقة صغيرة محدودة الموضوع مَبنية على معنى من المعاني او على حرف

---

(١) أبطرته ذرعاً : حملته ما لا يطيق . راجع : اللسان ، مادة (هبع) .

(٢) انظر : النوادر ، ص ٢٤٦—٢٤٨ .

من الحروف . وكلّ هذه الرسائل الصغيرة ، سواء ماوصل منها وما فقد ، انما ذابت في المعاجم الجامعة التي ألفت فيما بعد .

وقد وصلنا كثير من الرسائل التي تمثل هذه المرحلة فلأبي زيد الانصاري صاحب كتاب النوادر الذي سبقت الاشارة اليه في هذا الفصل عدد من الرسائل اللغوية التي تمثل هذا الشكل الثاني من اشكال جمع اللغة . مثل : كتاب **المطر** وكتاب **اللبأ واللبن** .[١] كما ان لمعاصره الاصمعي [٢] رسائل اخرى كثيرة من هذا النوع مثل : كتاب **الابل** وكتاب **الخيل** وكتاب **الشاء** وكتاب **اسماء الوحوش وصفاتها** وكتاب **خلق الانسان** وكتاب **النخل والكرم** وكتاب **النبات والشجر**[٣] . ومن هذا النوع أيضاً كتاب **الرحل**

---

(١) كتاب (المطر) وكتاب (اللبأ واللبن) لأبي زيد نشرا في بيروت عام ١٨٠٩ م وذلك في مجموعة من الرسائل اللغوية القيمة عنوانها (البلغة في شذور اللغة). وقد أشرف على تحقيق هذه الرسائل المستشرق أوغست هفنر والأب لويس شيخو .

(٢) الأصمعي : أبو سعيد عبد الملك بن قريب ، من اكبر علماء اللغة والرواية . وأغزرهم مادة ، وأوسعهم اطلاعاً وحفظاً ، ولد في البصرة سنة ١٢٢ هـ ، وتوفي فيها سنة ٢١٦ هـ ، كان يكثر من التنقل في احياء العرب في البادية ، ويأخذ عنهم اللغة والأخبار .

(٣) كتاب (النخل والكرم) وكتاب (النبات والشجر) نشرا في مجموعة البلغة في شذور اللغة (انظر حاشيتنا السابقة على كتابي المطر واللبأ واللبن لابي زيد الانصاري) أما كتابا (الابل) و (خلق الانسان) فقد نشرا في بيروت سنة ١٣٢٢ هـ في مجموعة =

والمنزل المنسوب لابن قتيبة . [١] وكل هذه الرسائل انما جمعت فيها الالفاظ بحسب معانيها وموضوعاتها . وهذه الرسائل هي التي كانت المادة الاساسية لمعاجم المعاني التي ظهرت بعدها .

وهناك رسائل أخرى جمعت فيها الالفاظ لا بحسب المعاني بل تبعاً لاحد حروف اصولها ، وهي تحمل عادة اسم الحرف الذي يجمع بين هذه الاصول فيقال : كتاب الخاء وكتاب الجيم وهلمّ جرا ... ومن أشهر ماوصلنا من رسائل هذا النوع كتاب **الهمز** لابي زيد الانصاري [٢]

وهناك نمط ثالث من هذه الرسائل جمعت فيها الالفاظ التي تربط بينها رابطة أخرى غير رابطة المعاني أو الحروف . من ذلك مثلا الكتب التي ألفت في **الاضداد** ، وقد جمعت فيها الالفاظ التي يستعمل كل منها للدلالة على الشيء وضده ، مثل **الجون** الذي يطلق على الاسود والابيض وكفعل **يشرى** الذي يدل على البيع وعلى الشراء [٣] . ومن ذلك ايضاً ماألف في

=عنوانها :(الكنز اللغوي في اللسان العربي) . وأما كتابا (الشاء)و (الخيل) فقد طبعا بعناية المستشرق هفنر . وأما (اسماء الوحوش وصفاتها) فقد طبع بعناية المستشرق جاير .

(١) نشر كتاب (الرحل والمنزل) ايضاً في المجموعة المسماة (البلغة في شذور اللغة) راجعه هناك اعتباراً من الصفحة ١٢٢ .

(٢) نشر كتاب الهمز بتحقيق الأب لويس شيخو في بيروت عام ١٩١٠ م .

(٣) من أشهر كتب الأضداد المطبوعة ثلاثة كتب في الاضداد للأصمعي والسجستاني وابن السكيت نشرت في بيروت عام ١٩١٢ بتحقيق المستشرق أ. هفنر .

مثلث الكلام ، وهي رسائل عديدة جمعت فيها الالفاظ التي وردت على ثلاث حركات بمعان مختلفة ، كأن تقول : **الغمر** — بفتح الغين — الماء الكثير ، و**الغمر** - بكسرها — الحقد ، و**الغمر** - بالضم — الرجل الجاهل . ومن أشهر ما ألف في هذا الباب مثلثات قطرب [١]

ومن ذلك أخيراً الرسائل المختلفة التي جمعت فيها الافعال ذات الاشتقاق الواحد ككتاب **فعل وافعل** لقطرب وكتاب **فعلت وأفعلت** للزجاج [٢] وغيرهما .

وكل هذه الرسائل كانت المادة الاساسية لمعاجم الالفاظ الكبرى التي ظهرت بعدها .

وفيما يلي أمثلة موجزة تبين طريقة تأليف هذه الرسائل :

---

(١) قطرب : أبو علي محمد بن المستنير ، وقطرب : لقب لقبه به استاذه سيبويه فغلب عليه ، كان عالما باللغة والنحو والأدب ، وهو على مذهب أهل البصرة ، وكان مؤدب أولاد أبي دلف العجلي ويقال انه اول من وضع المثلثات في اللغة . وقد طبعت **المثلثات** . في المانيا سنة ١٨٥٧م بتحقيق المستشرق ولمار

(٢) الزجاج : إبراهيم بن السري ، من علماء اللغة والنحو ، ولد في بغداد سنة ٢٤١ هـ ، وتوفي فيها سنة ٣١١ هـ ، كان اول امره يخرط الزجاج واليه نسب ، ثم اخذ النحو عن المبرد ، وأدب القاسم بن عبيد الله وكان ابوه وزير المعتضد العباسي ، فلما ولي القاسم الوزارة جعله من كتابه فأفاد ثروة حسنة .

ألف كتباً منها (معاني القرآن) و (الاشتقاق) و (فعلت وأفعلت) وهذا مطبوع في مصر سنة ١٣٢٥ هـ ضمن مجموعة (الطرف الادبية) .

جاء في كتاب الهمز لأبي زيد الأنصاري :

« تقول ، في باب من الهمز بَسَأت الرجل أبسأ به بسئاً وبسوءاً ، وبَهَأت به بهئاً وبُهوءاً وهما واحد وهو استئناسك به. وتقول بَرَأت من المرض فأنا أبرُؤ وأبرَأُ بُرءاً وبروءاً ، هذا من لغة أهل الحجاز، وسائر العرب يقولون : بَرِئت من المرض أبرأ بُرءاً وبرئت من الدّين أبرأ براءةً . وتقول : أبدأت من أرض إلى أخرى إذا خرجت منها إلى غيرها إبداء. وتقول : بُدِيءَ به فهو مبدوء ، إذا أخذه الجُدَريّ والحصبة . وتقول : بدأت بالأمر بدءاً . وتقول : بكأت الشاة تبكأ بَكئاً وبَكُؤت تبكؤ بَكاءَةً وبكئاً إذا قلّ لبنها ، وهي شاة بكيئة . وتقول : بذأته أبذؤه بذءاً إذا ذممته . . .

وتقول في باب آخر من الهمز : قد رزأت الرجل أرزؤه رزءاً ومرزئة إذا أصبت منه خيراً ما كان . وتقول : ربأت القوم أربؤهم إذا كنت لهم طليعة فوق شرف فاسم الرجل الربيئة . وتقول : أرجأت الامر إرجاءً إذا أخرته. وتقول : أرفأت السفينة إرفاءً إذا قربتها من الأرض . وتقول : رفأت الثوب أرفؤه رَفْئاً ورفّأت الملك (من الاملاك وهو الزواج) ترفئة إذا دعوت له . وتقول : رافأني الرجل في البيع مرافأةً إذا حاباك به . . .

وتقول في باب آخر من الهمز : قد دنأ يدنأ دَناءةً ودَنؤَ يدنؤ إذا

كان دنيئاً لا خير فيه . وتقول: دألت للشيء أدأل دَألاً ، ودأيت له أدأى دأياً إذا ختلته. تقول: دألت أدأل دَألاً ودَألاناً ، وهي مشية شبيهة بالختل . ويقال : الذئب يدأل للغزال ليأكله . الخ . . . »[1]

في هذا النص تتضح طريقة المؤلف في كتابه . فهو يعرض في كل باب منه الاصول اللغوية المنتهية بهمزة والمبدوءة بأحد حروف الهجاء . والنص المستشهد به مقتطف من أبواب ثلاثة متلاحقة في الكتاب وهي أبواب: **الباء والزاي والدال**. ونلحظ بسهولة أن أبواب الكتاب لم ترتب حسب الترتيب الهجائي المعروف . كما أن الألفاظ في كل باب من هذه الفصول ليست مرتبة أيضاً . فقد وردت الألفاظ في الباب الأول مثلا بالترتيب التالي : **بسأ - برأ - برأ - بطأ - بزأ** . وكان من حقها لو رتبت أن تكون هكذا: **برأ - بزأ - برأ - بسأ - بطأ** . وقس على ذلك الابواب الاخرى . كل هذا يدل على أن جمع اللغة في مثل هذا الكتاب كان مايزال في بدء مرحلة التنظيم .

وهذه أمثلة من كتاب آخر لابي زيد الانصاري جمعت فيه المفردات بحسب معانيها .

جاء في كتابه **المطر** :

«**أسماء الرعد** : **الرعد** وجماعه الرعود . ويقال ؛ رَعدت السماء فهي

---

(١) : انظر كتاب الهمز لأبي زيد ص ٦ و ٧ و ١٢ .

رَعد رَعداً ، وأرعد القوم إرعاداً اذا أصابهم الرعد. وفي الرعد **الازرام** وهو صوت الرعد . غير الشديد منه . وفيه **الزَّهزَم** وهو أشد صوت الرعد شديده وضعيفه ، وهو الهزيم . ويقال : تهزم الرعد تهزماً وانهزم انهزاماً وفيه **القعقعة** وهو تتابع صوت الرعد في شدة ، وجماعها القعاقع . وفيه **الرَّجْس والرَّجَسان** وهو صوت الرعد الثقيل ، رَجس الرعد ورجست السماء ترجس رَجساناً ورجساً . وفيه **الصاعقة** وجمعها الصواعق وهي نار تسقط من السماء في رعد شديد . ويقال : أصعقت علينا السماء إصعاقاً . وفيه **الازيز** وهو صوت الرعد تسمعه من بعيد ...

أسماء البرق : البرق وجماعه البروق . ويقال بَرقت السماء تبرق بَرقاً وأبرقَ القوم إبراقاً إذا أصابهم البرق ، **وتكشف** البرق تكشفا وهو إضاءته في السماء . **واستطار** البرق استطارة وهو مثل التكشف . **ولمع** البرق يلمع لَمعاً ولمَعاناً وهي البرقة ثم الأخرى المرة بعد المرة . **ولمح** البرق يلمح لَمْحاً ولَمحاناً وهو مثل اللمع غير أن اللمع لا يكون إلا من بعيد . **وتبسم** البرق تبسماً الخ ... »[1]

ونعتقد أن هذه الأمثلة كافية لبيان الخطوة التي حققتها هذه الرسائل المقتضبة في طريق تنظيم جمع اللغة .

المرحلة الثالثة . — وهي مرحلة وضع المعاجم العامة الشاملة المنظمة.

---

(١) : انظر كتاب المطر لأبي زيد في مجموعة البلغة ، ص ١٠٦ — ١٠٨ .

وقد اتبّع في ترتيب مفردات اللغة في هذه المعاجم ثلاث طرق مختلفة نتحدث عنها فيما يلي بحسب ترتيب ظهورها زمنياً .

آ ـ ترتيب الالفاظ بحسب مخارج الحروف

يكاد يتفق المؤرخون على أن أول من جمع اللغة أو حاول جمعها في معجم هو **الخليل بن أحمد الفراهيدي** [١] . واسم المعجم الذي قيل إن الخليل وضعه هو كتاب **العين**. وقد رتبت فيه الالفاظ بحسب مخارج الحروف مع مراعاة أواخر الأصول لا أوائلها . فكلمة (نبع) في باب العين ، وكلمة (علم) في باب الميم وهكذا ... ولم يرتب الخليل أبواب كتابه بحسب الترتيب الهجائي المعروف : ا ب ت ث ج الخ .. بل بحسب ترتيب مخارجها ، فبدأ

---

(١) : الخليل بن أحمد : أبو عبد الرحمن ، الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي ، أكبر علماء زمانه في العربية ومختلف علومها ، وأشدهم ذكاء ، وأخصبهم عبقرية ، وهو الذي استنبط العروض ، ولد في البصرة نحو سنة ١٠٠ هـ وتوفي فيها سنة ١٧٥ هـ ، وعاش فقيراً زاهداً راغبا عن الدنيا ، منقطعا إلى علومه ؛ وهو استاذ سيبويه .

ألف كتاب (العين) وهو أول معجم في اللغة العربية. والكتاب مايزال مخطوطاً نشر منه الأب أنستاس الكرملي جزءاً عدد صفحاته ١٤٤ ، في بغداد عام ١٩١٤ م ، ثم حالت الحرب العالمية الأولى دون إتمام طبعه . ولكتاب العين مختصر ألفه أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي الاشبيلي المتوفي سنة ٣٧٩ هـ . ولايزال هذا المختصر مخطوطاً أيضاً . انظر بحثاً قيماً في كتاب العين وأولية المعاجم العربية نشر في مجلة المجمع العلمي العربي عام ١٩٤١ بقلم الدكتور يوسف العش .

بحروف الحلق فاللسان فالاسنان فالشفتين الخ ... وختم كتابه بحروف العلة مما أدى إلى جعل ترتيب الكتاب على الشكل التالي : ع ح ه خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م و اي. كما انه اتبع الطريقة نفسها في ترتيب مفردات كل باب على حدة فلفظة **قرع** في باب العين قبل **زرع** وهـذه اللفظة قبل **رفع** وهـذه الأخيرة قبل **برع** وهكذا ...

وقد بدأ الخليل بحرف العين لأنه من أقصى حروف الحلق ، وإن لم يكن أقصاها . وباسم باب العين الذي هو الجزء الاول من المعجم سمي الكتاب كله . ويقال إن الخليل لم يبدأ بالهمزة ولا بالهاء مع انهما اقصى مخرجاً من العين لأن الهاء مهموسة وخفية ولأن الهمزة غير ثابتة بل هي عرضة للحذف والتغيير .

ومن خصائص طريقة الخليل في كتاب العين أنه لم يكن يكتفي بأن يذكر في كل باب الكلمات المنتهية بحرف معيّن ، بل كان يذكر أيضاً بعد كل مادة منتهية بهذا الحرف الكلمات التي تحدث عن تبديل موضع هذا الحرف في الاصل المذكور . فهو إذا ذكر مثلاً مادة **صرع** في باب العين وشرحها انتقل بعدها الى المواد الآتية : **رصع** و **عصر** و **صعر** الخ ... وهو ما اصطلح لغويو العرب على تسميته بالاشتقاق الكبير (١)

(١) أما الاشتقاق الصغير فهو أخذ الصيغ والمباني المختلفة من أصل واحد كأخذ عالم ومعلوم ومعلم وعلم يعلم من الأصل (ع ل م) . وأما الاشتقاق الأكبر فهو اتفاق —

ويرى بعض المؤرخين أن الخليل لم يكن إلاّ صاحب فكرة وضع المعجم ومبتدع طريقة ترتيبه . أما تنفيذ هذه الفكرة فمن عمل الليث بن المظفّر (١) . وليس من المستبعد أن يكون الخليل صاحب الفكرة والتصميم وواضع الجزء الأوّل من الكتاب ،وأن يكون الليث بن المظفر او سواه متمم الكتاب .ذلك أنّ الخليل كان من العباقرة الأفذاذ ،وكان الذي يأخذ عليه لبّه إنما هو الرغبة الملحة في الاستنباط والاختراع في اللغة والنحو والصرف والعروض والموسيقى والحساب . ولعلّ تأمله في الأصوات موسيقياً هو الذي هداه إلى اتباع الطريقة التي اشرنا اليها في ترتيب الفاظ اللغة . ومن المعلوم أن العباقرة المخترعين يكتفون عادة بنجاح الاختراع ويتركون لسواهم تفاصيل التنفيذ. ولعلّ الخليل ـ كسواه من هؤلاء المبتكرين ـ اكتفى بوضع طريقته لترتيب ألفاظ اللغة ولحصر أصولها حسابياً تاركاً لسواه أمر التطبيق والتنفيذ بعد أن كتب الجزء الأول من كتابه ليكون مثلاً يحتذى . ومما يقوّي هذا الفرض أن

= كلمتين في حرفين من حروف الأصل مع تناسب بينهما في المعنى مثل : كدّ وكدح وردّ وردع ومحا ومحق وهذى وهذر واحتفى واحتفل الخ ...

(١) الليث بن المظفر حفيد نصر بن سيار والي خراسان لبني أمية ، ويقال : بل هو ابنه . وكان من أصحاب الخليل بن أحمد . انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت.

كثيراً من علماء اللغة الثقات كابن جنّي [١] والقالي [٢] رأوا في كتاب العين من الفساد والتخليط ما لا يعقل صدور مثله عن مثل الخليل [٣] : ومما يقوي هذا الرأي أيضا في نظرنا كون الخليل قد عاش في عصر لم يكن جمع اللغة فيه قد تمّ ؛ بل كان الرواة فيه مايزالون يجدّون في جمع شتات اللغة وتدوينها في الرسائل الصغيرة . واذا صحّ أن الخليل قد وضع معجمه بنفسه بكامله كان ذلك أعجوبة خارقة في تاريخ تدوين اللغة ، إذ يكون هذا المعجم قد سبق سواه من المعاجم العربية بقرن ونصف قرن تقريباً ؛

---

(١) ابن جني : أبو الفتح عثمان بن جني . من أكبر أئمة النحو والتصريف واللغة، وأدقهم نظرا ، واقدرهم على الوقوف على أسرار تركيبها ، ولد في الموصل ، وكان أبوه مملوكا روميا ، وصحب أبا علي الفارسي أربعين سنة ، وكانت وفاته ببغداد سنة ٣٩٢ هـ .

له من الكتب (الخصائص) وهو كتاب نفيس طبع الجزء الأول منه في مصر . و(سر الصناعة) وقد شرع بطبعه حديثاً .

(٢) القالي : أبوعلي إسماعيل بن القاسم ، كان من أحفظ أهل زمانه للغريب والشعر والأخبار ولد في منارجرد (في ديار بكر بالجزيرة) سنة ٢٨٨ هـ ، وفيها نشأ ، ثم انقلب الى العراق ، وتلقى علومه ببغداد على ابن دريد وغيره ، ثم رحل الى الاندلس سنة ٣٢٨ هـ، وأقام بقرطبة ، أيام عبد الرحمن الناصر. وكان ابنه الحكم يحبه ويرعاه وقد أملى كتابه المشهور (الأمالي والنوادر) في مسجد قرطبة ، وله من الكتب (البارع) وقد طبع قسم منه بالتصوير ، و(المقصور والممدود والمهموز) وسواها . وكانت وفاته سنة ٣٥٦ هـ .

(٣) : انظر ماقاله في هذا الصدد السيوطي في كتابه المزهر، ج١، ص٣٩ — ٤٠

ذلك أن أول معجم جامع ظهر بعد كتاب العين هو كتاب الجمهرة الذي سيأتي الحديث عنه لمؤلفه ابن دريد الأزدي المتوفي نحو سنة ٣٢١ هـ .

وقد سار على نسق الخليل في تأليف المعاجم مع بعض الاختلافات الطفيفة أحياناً عدد من علماء اللغة الذين جاءوا بعده كأبي منصور الازهري في التهذيب [١] وابن سيده الاندلسي في المحكم [٢].

ب — ترتيب أصول الكلمات حسب حروف المعجم مع مراعاة أوائل هذه الأصول :

وهذه الطريقة نفسها قد مرّت بمراحل عديدة قبل أن تبلغ شكلها السهل المألوف اليوم .

فمن أوائل اللغويين الذين اتبعوا هذا الأسلوب في ترتيب المعاجم — إن لم يكن أوّلهم — ابن دريد الأزدي المتوفي سنة ٣٢١ هـ، وذلك

---

(١) الأزهري : أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي . أحد أئمة اللغة والمصنفين فيها . ولد في هراة من أعمال خراسان سنة ٢٨٢ هـ ، وفيها توفي سنة ٣٧٠ هـ . كان أول امره معنيا بالفقه ، ثم غلبت عليه اللغة ، فرحل الى البادية ، وأخذ عن الأعراب أما معجمه (التهذيب) فما يزال مخطوطاً .

(٢) ابن سيده: أبو الحسن علي بن اسماعيل الأندلسي، ولد في مرسية (شرقي الأندلس) وانتقل بعد الى دانية وفيها توفي سنة ٤٥٨ هـ . وهو من علماء اللغة المشهورين بسعة الحفظ وجودته وكان ضريرا ، أما معجمه (المحكم) فما يزال مخطوطاً .

في كتابه **جمهرة اللغة**[١] .

وقد رتبت الكلمات في هذا المعجم من حيث المبدأ حسب الترتيب الهجائي لحروف أصولها ، مع مراعاة أوائل هذه الأصول . نقول **من حيث المبدأ** لأن ابن دريد قد سار على نهج الخليل من حيث النظر الى تقلبات الأصل الواحد حسب نظرية الاشتقاق الكبير التي اشرنا اليها آنفاً . فهو اذا ذكر مادة **بثق** وشرحها في باب الباء انتقل بعدها إلى **ثقب** . وكذلك إذا بلغ في الباب نفسه مادة **بقل** ذكر بعدها على التوالي: قبل ـ قلب ـ لقب ـ لبق الخ ... وهذا مما عقد طريقته التي هي من حيث الأصل سهلة مأنوسة ، واضطرّ الباحث أن يتحرى المادة التي يريدها ، لا في باب الحرف الأول من حروفها بل في باب الحرف الذي يسبق باقي حروفها من حيث الترتيب الهجائي . فمادة **لقب** انما نجدها في **بقل** ، و **لبس** في **بسل** ، و **نسب** في **بسن** وهكذا . .

وسبب ذلك أن ابن دريد، شأنه في ذلك شأن الخليل بن احمد ، اراد

---

(١) ابن دريد ، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد شاعر وعالم، من كبار علماء العربية . ولد في البصرة سنة ٢٢٣ هـ ، ورحل الى عمان فأقام فيها ١٢ عاما ، ثم رجع الى البصرة ، ومنها رحل الى فارس فبغداد ،واتصل بالخليفة المقتدر ، فأجرى عليه راتباً إلى أن توفي سنة ٣٢١ هـ .

له من الكتب (الاشتقاق) طبع في أوربا و (الملاحن) طبع في مصر ،وا كبر كتبه (الجمهرة) طبع في حيدر آباد بين سنتي ١٣٤٤ هـ — ١٣٥٢ هـ .

تجنّب التكرار في كتابه فلم يبدأ بعد الحرف الأول إلاّ بالحرف الذي يليه . فهو اذا بلغ باب الراء من الثلاثي الصحيح مثلاً ، بدأ بذكر الأصول التي تبدأ براء ثم بزاي مثل رزم - رزن ... ثم ذكر الأصول التي تبدأ براء ثم بسين مثل رسغ - رسف - رسل ... ولكنه لا يذكر في هذا الباب مادة ربح لأن ذكرها سبق في برح ولا رجح لأن ذكرها سبق في جرح ولا رضم لأنه سبق شرحها في هرم ولا رزح لأنها سبقت في هرز ولا رسخ لأنها سبقت في فرس، وعلى هذا فقس ...

ومما يزيد في تعقيد طريقة الجمهرة ان المؤلف لم ينظر إلى مفردات اللغة نظرة واحدة ، بل قسمها إلى فئات بحسب عدد أحرف أصولها ونوع بنائها ، ورتب كلّ فئة في باب مستقل .

فالمادتان بتّ وبر مثلاً نجدهما في فصل الباء من باب (الثنائي الصحيح) كما يسميه ابن دريد . أما بثبث و بربر فنجدهما في فصل الباء من باب آخر يسميه ابن دريد (باب الثنائي الملحق بالرباعي) . وأمّا بثر و برز فنجدهما في فصل الباء من باب ثالث ، هو (باب الثلاثي الصحيح) وتأتي بعد ذلك أبواب المعتل والرباعي وغيرهما . .

وكتاب الجمهرة يبقى على رغم كلّ ماذكرنا مرجعاً لغويا قيماً لأنه أقدم معجم مفصّل وصلنا بتمامه ، إذ أن كتاب العين على ما يعتور قصة وضعه من شكوك لم يصبح بعد في متناول الأيدي كما ذكرنا . نعم ، إن ابن

دريد سار على نهج الخليل في كثير من الأسس التي اتبعها ، ولكن الفضل يعود إليه في الخروج عن الطريقة الصوتية في ترتيب المعجم إلى النظام الهجائي المألوف وهو تجديد كبير كان له أثره فيما بعد . وقد اضطر ناشرو الجمهرة ـ لما لها من قيمة ـ أن يصنعوا لها فهارس أبجدية مطولة لا يقل حجمها عن حجم الأصل، مما جعل المراجعة في هذا الكتاب اليوم أمراً سهلاً وميسوراً .

ثم جاء ابن فارس (١) فألف في اللغة معجمين اثنين بناهما على أسس واحدة، أحدهما مختصر وهو **المجمل** وثانيهما جامع مفصل وهو كتاب **مقاييس اللغة**. وطريقة ابن فارس في معجميه هذين ، كطريقة ابن دريد، قائمة على ترتيب مفردات اللغة على حروف المعجم مع مراعاة أوائل الكلمات ؛ إلا أن ابن فارس هذب طريقة سلفه من ناحيتين : أولاهما أنه لم يراع تقلبات الأصل الواحد بل ذكر كل مادة في باب الحرف الأول منها . فمادة **قبل** في حرف القاف ، و**بقل** في الباء و**لبق** في اللام . أما ابن دريد فقد رأينا أنه كان يذكر كل هذه المواد في حرف الباء . والناحية

---

(١) ابن فارس : أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي ، إمام في اللغة والأدب ، وهو أستاذ البديع الهمذاني ، والوزير الصاحب ابن عباد ، كانت ولادته سنة ٣٢٩ هـ وأصله من قزوين ، ثم أقام في الري فتوفي فيها سنة ٣٩٥ هـ وإليها نسبته .

له من التصانيف (مقاييس اللغة) طبع في مصر في ستة أجزاء سنة ١٣٦٦ هـ بتحقيق عبد السلام هارون و (المجمل) طبع الجزء الأول منه في مصر مرتين سنة ١٣٣١ هـ وسنة ١٩٤٨ م .

الثانية هي أن ابن فارس لم يقسم كلاً من معجميه إلى أبواب كبيرة تبعاً لعدد الحروف التي تتألف منها الأصول العربية ، كما فعل ابن دريد حين قسم الجمهرة إلى أبواب عديدة ، كباب الثنائي الصحيح وباب الثنائي الملحق بالرباعي ، وباب الثلاثي الصحيح ، وباب الثلاثي المعتل ، وباب الرباعي ... ولكنه قسم كل كتاب بدوره إلى كتب بعدد حروف المعجم ، ثم قسم كل كتاب بدوره إلى أبواب ثلاثة : ١ ـ الثنائي المضاعف ، ٢ ـ الثلاثي . ٣ ـ مافوق الثلاثي . وبذلك صرنا نجد مثلاً المواد : بث — بثر — بلعم في كتاب الباء نفسه بينما كنا لانعثر عليها في الجمهرة إلا في أجزاء متفرقة .

ومما يؤسف له أن ابن فارس التزم في البابين الأولين من كل حرف ما التزمه ابن دريد قبله من حيث ترتيب المفردات ، فهو لا يبدأ بعد الحرف إلا بالذي يليه ، كأن يبدأ في باب الثلاثي من كتاب الباء بذكر **بثر** ، ثم **بثن** ، ثم **بحر** . . . حتى إذا استنفد حروف الهجاء بعد الباء وبلغ الياء في **بيع** و **بين** عاد فذكر **بأس** وما شابهها وكان من حقه أن يبدأ بها. ولئن كان لهذا الأسلوب المعقد ما يُسوّغه في الجمهرة ، إذ استطاع به مؤلفها تجنب التكرار حين نظر في كل مادة إلى تقلّبات حروفها ، فليس هناك ما يسوغه في معجمي ابن فارس الذي عزف كما رأينا عن الأخذ بهذا المبدأ في معجميه .

❀ ❀ ❀

ولبث اللغويون بعد ابن فارس يتخبطون في مثل هذه الطرق ، محاولين

تلمس أسهل الوسائل إلى ترتيب ألفاظ اللغة في معاجمهم ، إلى أن استطاعوا بعد جهود كثيرة التخلص من الاعتبارات الصرفية التي كانت تعقد عملهم، فوضعوا المعاجم المرتّبة على حروف الهجاء مراعين فيها أوائل الأصول من غير خروج أو شذوذٍ عن القاعدة .

أما أن اللغويين لم يصلوا إلى هذا النمط الطبيعي السهل في ترتيب المعاجم إلا بعد أن تخبّطوا أجيالاً طويلة في مثل هذه الطرق الملتوية التي وصفناها فهو أمر جد طبيعي . ذلك أن السهولة والبساطة هما الكمال عينه. فهما لهذا السبب أصعب الأشياء وأرقاها . ولا تصل الانسانية في مستحدثاتها إلى السهولة والبساطة والطبع إلا بعد كثير من التجارب والجهود والتضحيات ، وبعد أن تمر بأدوار عديدة كلها صعوبة وتصنع وتعقيد . وهذا المبدأ ينطبق على المبتكرات الانسانية جميعها ، ماديةً ومعنوية .

ولعل أول معجم تمثلت فيه هذه الطريقة المنطقية البسيطة السهلة هو كتاب أساس البلاغة للإمام الزمخشري [1] ، وهو معجم قيم عني فيه

---

(١) الزمخشري : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري . ولد في زمخشر سنة ٤٦٧ هـ وجاور في مكة زمناً ، وتقلب في البلاد ، وتوفي في (جرجانية) من قرى خوارزم سنة ٥٣٨ هـ . وهو من أئمة الدين والتفسير واللغة ، أشهر مؤلفاته (تفسير الكشاف) وقد طبع في مصر مرارا . وأما معجمه (أساس البلاغة) فقد طبع في مصر أكثر من مرة. ومن آثاره أيضاً (المفصل) في النحو وطبع مرارا في مصر لوحده ومع شرح ابن يعيش عليه .

مؤلفه بذكر المعاني المجازية للالفاظ إلى جانب معانيها الحقيقية . وسنعود إلى ذكره وبيان مزاياه بعد أن نفرغ من هذا العرض التاريخي . وقد سار على نهجه فيما بعد عدد من مؤلفي المعاجم ، أشهرهم مجد الدين بن الأثير في معجمه الضخم : **النهاية في غريب الحديث** [١] ، وأحمد بن محمد الفيومي في معجمه المختصر اللطيف : **المصباح المنير** [٢] . ولا ننس أن طريقة الزمخشري هي الطريقة التي تتبعها كل المعاجم العربية الحديثة .

٥ - ترتيب الكلمات حسب الترتيب الهجائي ، مع مراعاة اواخر الكلمة

أول من اتبع هذه الطريقة في ترتيب المعاجم ابو نصر الجوهري [٣] أحد علماء اللغة في القرن الهجري الرابع ، وذلك في معجمه المشهور

---

(١) ابن الأثير : مجد الدين المبارك بن محمد الجزري ، ولد في جزيرة ابن عمر سنة ٥٤٤ هـ . ورحل إلى الموصل فجعله صاحبها من اخصائه . أصيب أواخر حياته بالنقرس وتوفي في احدى قرى الموصل سنة ٦٠٦ . وهو من علماء الحديث واللغة والأصول ، ألف كتباً كثيرة أهمها (النهاية في غريب الحديث) وهو مطبوع في أربعة أجزاء في مصر .

(٢) الفيومي خطيب ولغوي معروف من رجال القرن الهجري الثامن . كان خطيب جامع الدهشة بحماة . وقد طبع معجمه (المصباح المنير) عدة طبعات في مصر .

(٣) أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري ، من أئمة اللغة في القرن الرابع . أصله من (فاراب) ، توفي نحو سنة ٢٩٣ هـ . يقال انه مات قتيلا بعد ان حاول الهبوط من سطح المسجد الى الارض طائراً بجناحين من خشب اخترعهما .

تاج اللغة وصحاح العربية المعروف اختصاراً بمعجم الصحاح.[١]

وخلاصة هذه الطريقة ان تصنف أصول اللغة في ثمانية وعشرين باباً بعدد حروف الهجاء، أولها باب الهمزة و آخرها باب الياء. ثم يثبت كل أصل من هذه الاصول في باب الحرف الاخير منه. فالاصول التالية: أرب، طرب، عجب، لعب، كتب، ... الخ تثبت في باب الباء. و كذلك تثبت الاصول التالية: برع، جمع، صرع، نفع، وقع.. في باب العين، وهكذا.. ثم تصنف هذه الاصول بعدذلك في كل باب بحسب ترتيب أوائلها بعد أن يقسم كل باب الى ثمانية وعشرين قسما أيضاً يسمى كل منها فصلا. وبحسب ما تقدم تثبت كلمة قرأ في فصل القاف من باب الهمزة، وهو أول ابواب المعجم. وتثبت كلمة ألى في فصل الهمزة من باب الياء وهو آخر المعجم، وترتب الاصول في كل فصل بحسب الترتيب الهجائي لما يلي الحرف الاول من حروف الأصل ففي فصل الخاء من باب الباء مثلا ترتب الاصول الثلاثية كما يلي: خبب خرب. خرب، خزب، خشب، خصب، خضب، خطب... الخ. وينتهي هذا الفصل بمادة خيب. وفي فصل السين من باب الراء، ترتب هذه الاصول مثلاً كما يلي: سأر، سبر، ستر، سجر، سحر، سفر، سرر، سطر، سعر ... الخ وينتهي هذا الفصل بمادة سير.

---

(١) طبع (الصحاح) في مجلدين سنة ١٢٩٢ هـ في مطبعة بولاق المصرية.

وإذا كانت الأصول رباعية روعي فيها أيضاً ترتيب ثوالثها بعد مراعاة ترتيب ثوانيها على الشكل الذي ذُكر آنفاً . فبعد أن تثبت مادة **سعر** مثلاً في موضعها من فصل السين وباب الراء ، تُثبت الأصول الرباعية التالية المتصلة بهذه المادة : **سعبر** (١) ، **سعتر** (٢) .. الخ . وكذلك بعد أن تذكر مادة **سمر** في موضعها من الفصل نفسه تذكر الأصول الرباعية التالية : **سمسر** (٣) ، **سمهر** (٤) ... وهكذا دواليك .

ولم يذكر الجوهري في مقدّمة معجمه الأسباب التي حملته على مراعاة أواخر الأصول اللغوية في ترتيب معجمه . وللباحثين تعليلات كثيرة لهذا الترتيب لاشكّ أن من أجدرها بالاعتبار كون هذه الطريقة تسهل على الناظمين أمر اختيار قوافيهم . ويجب ألاّ ننسى أن هذه الطريقة في الاعتماد على آخر الكلمة هي طريقة قديمة لأنها طريقة الخليل بن أحمد نفسه في كتاب **العين** وطريقة أبي زيد الانصاري في كتاب **النوادر** .

وهذه الطريقة في الترتيب ، وإن بدت للوهلة الاولى معقّدة ومعكوسة فهي سهلة جداً . وفي وسع الطالب أن يألفها بشيء من العادة والمراس .

وقد سار على نهج الجوهري في ترتيب المعاجم فيما بعد عدد من

---

(١) السعبر والسعبرة : البئر الكثيرة الماء .

(٢) السعتر : نبت معروف ، وبعضهم يكتبه بالصاد .

(٣) السمسار : هو الوسيط في التجارة وهي لفظة فارسية معربة .

(٤) السمهري : الرمح الصليب العود .

أشهر مؤلفي المعاجم كابن منظور المصري في (لسان العرب) [١] ومجد الدين الفيروزابادي في (القاموس المحيط [٢]) . وسنعود الى ذكر هذين المعجمين بعد قليل لشهرتهما وكثرة الحاجة اليهما .

وقد سمّى الجوهري معجمه **الصحاح** [٣] مشيراً بهذه التسمية الى حرصه الشديد على ذكر الألفاظ **الصحيحة** دون سواها . ولعلّه كان يرى أن من سبقه من مؤلفي المعاجم كالخليل بن أحمد وابن دريد مثلاً ، ذكروا في معاجمهم من الألفاظ مالم تثبت صحته . والمراد بصحة اللفظة هنا أن تكون موثوقة الرواية عن العرب [٤] .

---

(١) ابن منظور المصري لغوي وأديب كبير ، اسمه محمد بن مكرم ، عاش اكثر حياته في مصر ، وتوفي في القاهرة سنة ٧١١ هـ . وقد طبع معجمه لسان العرب في مطبعة بولاق المصرية سنة ١٣٠٠ هـ في عشرين مجلداً .

(٢) مجد الدين ، محمد بن يعقوب الفيروزابادي من كبار لغويي القرن الهجري الثامن ، أصله من فيروز اباد ، وهي قرية فارسية بالقرب من شيراز . وقد طبع معجمه (القاموس المحيط) في اربعة اجزاء اكثر من مرة .

(٣) صِحاح — بكسر الصاد — جمع صحيح ، وبفتح الصاد وصف بمعنى صحيح . وقد لفظ عنوان معجم الجوهري بالوجهين .

(٤) ولمعجم الصحاح مختصر لطيف جداً اسمه (مختار الصحاح) صنعه الامام محمد بن أبي بكر الرازي المتوفى سنة ٧٦٠ هـ . وكان ترتيبه في الاصل كترتيب الصحاح ولكن أحد العلماء المصريين المعاصرين وهو الاستاذ محمود خاطر أعاد تنسيق مفرداته حسب ترتيب أوائلها في حروف الهجاء نزولا عند رغبة وزارة المعارف المصرية . وقد ظهرت أول طبعة من (مختار الصحاح) على هذه الصورة عام ١٩٠٥ م .

أشهر المعاجم التي سبق ذكرها :

لعلّ أجدر هذه المعاجم العربية القديمة التي عرضنا لذكرها بالتنويه ثلاثة : **أساس البلاغة** للزمخشري و**لسان العرب** لابن منظور المصري ، و**القاموس المحيط** للفيروزابادي . ولذا كان من المستحسن في آخر هذا الفصل أن نخص كلا منها بكلمة نبين فيها مزاياه وخصائصه .

آ — **أساس البلاغة** : لهذا المعجم في نظر الأدباء والباحثين منزلة لا يشركه فيها معجم آخر . ذلك أن مؤلفه — وهو من كبار علماء البلاغة — كان ، مع عنايته ببيان المعاني الحقيقية للألفاظ ، يوجه جُلّ اهتمامه إلى بيان استعمالاتها المجازية .

ويمكن تلخيص مزايا هذا المعجم بما يلي :

١ً — يكتفي في الغالب بذكر الأفصح من اللغات .

٢ً — يذكر المعنى الحقيقي للفظ أولاً ، ثم ينتقل في فقرة ثانية إلى ذكر معانيه المجازية ، فلا يمزج بين المعنيين كغيره من المعاجم .

٣ً — لا يشرح معنى الالفاظ إلاّ في النادر ، وعند الضرورة . وهو يفهمنا معنى اللفظ في غالب الأحيان باستعماله اياه في أمثلة فصيحة . وهذه الطريقة جيدة وذكية لأنها تبين للقارىء معنى اللفظ وطريقة استعماله في آن واحد . واللفظة لا تكون حيّة ولا يتضح معناها تماماً إلاّ إذا كانت مستعملة في جملة . أما الاكتفاء بشرح معنى اللفظة شرحاً نظرياً فكثيراً

ما يفقد اللفظة حياتها ويجعل القارئ في حيرة من أمره إذا حاول استعمالها في حديثه أو في كتابته .

والرجوع إلى أساس البلاغة في غاية السهولة . فللبحث عن لفظة ما نعيدها إلى أصلها بعد طرح الزوائد منها ، ثم نفتش عنها في مادة هـذا الأصل حسب الترتيب الهجائي المعروف ، مع مراعاة أول حرف من حروف هذا الاصل ، ثم الحرف الثاني ثم الحرف الثالث .

بيد أن هذا المعجم ، على جلالة قدره ، غير كاف ، لأنه غير مستوعب لجميع مفردات اللغة . وسبب ذلك أنه ألف لغرض بلاغي ، وهو توضيح المعاني المجازية للألفاظ وتمييزها من المعاني الاصلية الحقيقية . فهو يكاد يقتصر على ذكر الالفاظ ذات الاستعمال المجازي ، اما الألفاظ التي لايتناولها المجاز فما أقل مايذكرها. ولذا كان لابد للمراجع في كثير من الأحيان من الاستعانة إلى جانب **اساس البلاغة** ببعض المعاجم الأخرى الواسعة .

ب — **لسان العرب** : هو اضخم معاجم الالفاظ العربية على الاطلاق يقع في عشرين جزءاً . وهو إلى ان يكون موسوعة لغوية وأدبية أقرب منه الى أن يكون مجرد معجم لغوي؛ وذلك نظراً الى وفرة مايحتويه من بحوث لغويـة واستطرادات أديـة . يمتاز هذا المعجم بغزارة مادته واستيعابه لمعظم مفردات اللغة العربية . وهو يمتاز أيضاً بكثرة التفصيل وايراد الوجوه واللغات والروايات المختلفة . وهو يمتاز أخيراً بذكر

المصادر التي يستمد منها، وبالاكثار من ايراد الشواهد الشعرية والنثرية التي يُحتجّ بها .

وهذا المعجم مرتب كما أشرنا سابقاً على طريقة الجوهري في **الصحاح** ومراجعته سهلة؛ يبدأن المبتدىء يلاقي في الرجوع إليه أوّلَ الأمر بعض المصاعب ، وذلك لكثرة اجزاء هذا المعجم من جهة ، ولغزارة مادته من جهة ثانية ؛ إذ كثيراً مايستغرق الكلام على الأصل اللغوي الواحد ومشتقاته عدة صفحات . ولكنّ الممارسة المستمرّة كفيلة بأن تجعل المراجع يعثر فيه على مبتغاه بسهولة وبوقت قصير .

م – **القاموس المحيط** : هذا المعجم هو أصغر حجماً وأشد اختصارا من لسان العرب ، ولكنه مكثّف المادة جداً . فالمراجعة فيه ، ولا سيما للمبتدئ ، تحتاج الى تدبرّ وانتباه شديدين . وسبب ذلك ان هذا المعجم على صغر حجمه يجمع في أجزائه الأربعة كل مفردات اللغة التي ذكرها اللسان في اجزائه العشرين ؛ بل ربما ذكر ألفاظاً لانجدها في اللسان . وقد عمد المجد الفيروزابادي الى طريقة خاصة في التأليف استطاع معها ان يجمع مثل هذه المادة الغزيرة في مثل هذا العدد القليل من الاجزاء. فهو من جهة قد اكتفى ببيان معاني الألفاظ مجرّدة عن الشواهد والنصوص ؛ ومن جهة ثانية أكثر من استعمال بعض الحروف رموزاً أثناء الشرح بدلاً من بعض الكلمات التي يكثر تكرارها ، فاستعمل **م** بدلاً من **معروف** ، و **ع** بدلاً من **موضع** ، و **ج** بدلاً من

جمع و جج بدلاً من جمع الجمع ، و ة بدلاً من قرية و ر بدلا من بلد.

وهنالك خصائص أخرى للقاموس يراها المراجع مذكورة في المقدّمة ، منها أنه لايضبط عين المضارع المفتوحة ، ويكتفي بضبطها في حالي الضم والكسر .ومنها أنه يقدّم المشهور الفصيح أولاً ثم يُتبعه باللغات الاخرى، كما يقدم المقيس على غيره غالباً في المصادر وفي الجموع ، إلى غير ذلك من الخصائص والمصطلحات التي يتعرفها المراجع شيئاً فشيئاً .

ولعل كثافة هذا المعجم ولغته الرمزية الاصطلاحية من الأسباب التي حملت المرتضى الزَبيدي أحد علماء اللغة في القرن الهجري الثاني عشر [١] على شرح هذا المعجم وتزويده بالشواهد الكثيرة ، وذلك في معجمه المشهور **تاج العروس** [٢] الذي هو كنز من كنوز اللغة العربية لايقل من حيث ضخامته وغناه عن لسان العرب .

بعض ملاحظات عامة على هذه المعاجم

واذا كان لنا مانلاحظه على هذه المعاجم العربية الهامة ولا سيما على

---

(١) هو محمد بن محمد الحسيني الزبيدي ، نسبةً إلى زَبيد (بفتح الزاي وكسر الباء) وهي بلدة في اليمن . من كبار المصنفين في اللغة . توفي في مصر سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) . من كتبه الهامة المطبوعة (شرح إحياء علوم الدين) للغزالي .

(٢) طبع (تاج العروس) في المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦ هفي عشرة أجزاء.

الثلاثة الأخيرة منها : **اللسان والقاموس والتاج** ، فهو أنها على سعة انتشارها وشدة الحاجة إليها ماتزال من حيث شكلها بعيدة عن مقتضيات العصر وما تتطلبه وسائل البحث الحديثة من سهولة ووضوح وقرب مأخذ.

ولعلّ الناشرين يُحسنون صنعاً لو فكّروا باعادة نشر هذه المعاجم نشراً حديثاً يقرب مأخذها دون أن يمسّ جوهرها بأذى ، وذلك خدمة لطلاب اللغة العربية من عرب وغير عرب ، وتوفيراً للوقت وتشجيعاً لجمهور المثقفين على الاقبال عليها والرجوع اليها بصدر منشرح . فبدلاً من أن نرى الالفاظ المشتقة من أصل واحد تتوالى في المادة الواحدة بدون ترتيب يحسن أن تُميَّز هذه الألفاظ بعضها من بعض، كأن تكتبَ كل لفظةٍ منها بحرف خاص غير الحرف المستعمل في الشرح وتوضع في أول السطر ، مع بقائها ضمن المادة الواحدة .

وإذا كان للفظة من هذه الألفاظ عدة معان ، حَسُن أيضاً أن يُفصَلَ بين هذه المعاني بفواصل واضحة ؛ وبذلك يسهل على المراجع أن يعثر على اللفظة التي يريدها وعلى المعنى الذي يبتغيه دون كبير عناء ومن غير اضاعة للوقت .

ومما يلاحظ على هذه المعاجم أيضاً ـ على رغم اتساعها وتعدد أجزائها ـ نقصها . ذلك أنها تُعنى بإثبات الألفاظ القديمة بما فيها الغريب والموات ، وتبذل جهداً عظيماً في استقصائها وتوضيح معانيها والاستشهاد عليها بالقرآن والحديث والشعر الذي يحتجّ به ، ولكنها تُهمل في الوقت ذاته كثيراً

من الألفاظ والاستعمالات الجديدة التي تتردد في الشعر المحدث وفي المؤلفات العلمية والادبية التى ظهرت في مختلف العصور العباسية . وهذا ماحدا ببعض الباحثين على جمع الالفاظ التي لم يرد لها ذكر في معاجمنا القديمة ونشرها على حدة . ولعلّ المستشرق الهولندي **دوزي** أشهر من عُني بسدّ هذا النقص في معجمه الذي سمّاه **ملحق المعاجم العربية** ونشره في مدينة (ليدن) في مجلّدين ضخمين في أوائل هذا القرن . ومن المفيد أن نثبت هنا بعض ماقاله هذا العالم المعروف في مقدمة معجمه المشار إليه.

« لقد كان واضعو المعاجم العربية شديدي التزمت راغبين عن كل ما لا يمت بصلة الى لغة القرن الهجري الأوّل وما قبله ، واقفين في إثباتهم لمفردات اللغة عند ذلك الزمن الذي بدأ فيه العرب يحتلون مكانهم في ركب الحضارة العالمية ويتقبلون كثيراً من الألفاظ الجديدة التي ترجع بأصولها الى اللغات الأجنبية كي يعبّروا بها عن الأشياء والأفكار الجديدة . نعم ، لقد وقف واضعو المعاجم العربية باللغة عند الزمن الذي سبق المصنفات العربية الكثيرة في الجغرافية والتاريخ وشتى العلوم ، تلك المؤلفات التي تهمنا في دراساتنا أكثر من أي شيء سواها . وما أشبه المستشرق الذي يريد دراسة الحضارة العربية معتمداً على هذه المعاجم بمن يريد ان يدرس الحضارة اليونانية وأن يفهم آثار توسيديد وديموستين وأفلاطون وهو لا يملك إلا معجماً للغة هوميروس» (١) .

(١) هوميروس هو أشهر شعراء اليونان في العصر القديم. وإليه تنسب الملحمتان=

ربما كان في كلام هذا العالم بعض الاسراف، لأن القرآن الكريم قد أعان على ديمومة اللغة خلال العصور، وساعد على استمرار كثير من الأصول العربية القديمة في لغة آدابنا وعلومنا حتى اليوم، وهي ظاهرة لم يعهدها مثيل في لغة أخرى. ولكن أساس الفكرة يبقى صحيحاً من حيث نقص معاجمنا القديمة بسبب إهمالها كثيراً من الالفاظ والاستعمالات المستحدثة في أزهى عصور الحضارة العربية (١).

وهناك ملاحظة أخيرة على هذه المعاجم. وهي أنها لا تعيننا على مسايرة التطور التاريخي للغتنا بشكل واضح. ذلك أن هذه المعاجم كما ذكرنا تقف بدافع التزمت اللغوي عند حدٍ زمني معين فلا تتجاوزه إلى ذكر الألفاظ المولدة أو المعاني المستحدثة إلا قليلاً. وهي بهذا العمل تقطع سلسلة التطور في معاني الألفاظ قطعاً اعتباطياً. يضاف إلى هذا أن هذه المعاجم حين تشير إلى المعاني المختلفة للفظة من الألفاظ مؤيدةً إياها بالشواهد الكثيرة لا تحاول أن تضبط هذه المعاني بالضوابط الزمنية؛

= المعروفتان : الإلياذة والأوديسة . ويظن انه عاش في القرن الثامن قبل الميلاد. أما توسيديد وديموستين وأفلاطون فأولهم مؤرخ والثاني خطيب والثالث فيلسوف. وثلاثتهم من كبار رجال الفكر اليونانيين الذين عاشوا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.

(١) هذا مع العلم أن علماء اللغة أفردوا للألفاظ الدخيلة كتباً خاصة بها ؛ ومن أشهر هذه الكتب ، (المعرّب) لموهوب بن احمد الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩ هـ ، و (شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل) للشهاب الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ .

مع العلم أن المعاني المختلفة للفظة الواحدة كثيراً ما تكون نتيجة تطوّر تدريجي . ولو أن معاجمنا اصطبغت بالصبغة التاريخية لاستطعنا بفضلها أن نعرف متى ظهرت اللفظة على وجه التقريب ، ومتى أهملت ، ومتى بُعثت حية من جديد ، وفي أي عصرٍ اكتسبت كلاً من معانيها المختلفة . ذلك أن اللغة كائن حيّ في تجدد وتطور مستمرين . فمن المفردات ما يُهمل ثم ينام نومه الأبدي ، ومنها ما يهمل ثم يبعث حياً . كما أن هناك ألفاظاً ترفد اللغة من طرقٍ شتى أجنبية ومحلية ، ومعاني جديدة تكتسبها الالفاظ القديمة . والمعجم لا يكون حياً إلاّ إذا كان صورة دقيقة لحيويّة اللغة . ولذا كانت المعاجم لدى الأمم في تجدد دائم ؛ حتى إن بعضها ليعاد طبعه بشكل دوري ، مذيلاً في كل طبعة بالحواشي والزيادات حتى لا يفوته من تطور اللغة شيء . أما المعجم الذي يقتصر على ذكر ألفاظ اللغة حتى عصرٍ معين ، فقد يصلح لدراسة إحدى مراحل تاريخ تلك اللغة ، أو لفهم النصوص المكتوبة بتلك اللغة حتى ذلك العصر . ولكن لا يمكن بحالٍ من الاحوال اعتباره معجماً حياً شاملاً لتلك اللغة .

وطالما شعر الدارسون للغة العربية ، عرباً وغير عرب ، بحاجتهم إلى معجمٍ تاريخي شامل لهذه اللغة . وقد حاول أحد المستشرقين الالمان (فيشر Fisher) وضع مثل هذا المعجم فوافته منيته قبل أن يستطيع تنظيم المواد التي كان دائباً في جمعها . وقد نقلت هذه المواد من ثمّ إلى **مجمع فؤاد الاول للغة العربية** كي يستعين بها المجمع المشار إليه في تصنيف

المعجم اللغوي التاريخي الذي يتهيأ لوضعه . إذ أن المادة الثانية من مرسوم إنشاء هذا المجمع — وقد صدر هذا المرسوم عام ١٩٣٢ — تحتم عليه « أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية وأن ينشر أبحاثاً دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها. » ولعل هذا المجمع محقق لآمال محبي اللغة العربية ذات يوم .

ولكن مهما يكن خطر هذه الملاحظات التي أبديناها فإن هذه المعاجم تبقى كنزاً من أثمن كنوز العربية ومرجعاً لا غنى للباحث المتخصص عنه. ولا يجزئ عنه مرجع آخر .

❀ ❀ ❀

الفصل الثاني

معاجم المعاني

سبق أن أشرنا الى أن معاجم المعاني ، بخلاف معاجم الالفاظ ، تفيدنا مبدئياً في ايجاد لفظ لمعنى من المعاني يدور بخلدنا ولا ندري كيف نعبر عنه تعبيراً دقيقاً . وهي فائدة جليلة يقدرها حق قدرها كل من مارس الكتابة أو الشعر أو الخطابة أو الترجمة أو البحث العلمي . فكثيراً ما يقف الكاتب حائراً لا يدري كيف يعبر عن أحد المعاني أو المدركات الحسية . وكثيراً ما يشعر هذا الكاتب بالحاجة الى لفظ يستعمله مرادفاً للفظ آخر سبق له أن استعمله ولا يريد تكراره . وكذلك المترجمون ، فأكثر ما يصطدمون في الآثار التي يترجمونها بألفاظ أجنبية يعسر عليهم لأول وهلة إيجاد ما يقابلها . هذه العقبات وسواها يعرفها كل من مارس الكتابة لأنها تعترضه في عمله بين فترة وأخرى . وليس كمعاجم المعاني ما يذللها ويهدي الى اللفظ المنشود .

وقد عُني اللغويون والادباء العرب منذ بدء عهد التدوين بالتصنيف في هذا الباب . فوضعوا الرسائل المختصرة أولا ، ثم صنفوا عدداً من المعاجم

التي تختلف من حيث الحجم والاستيعاب. فسدّوا بذلك حاجة الكاتب والباحث الى حدٍ كبير.

وسنحاول هنا — شأننا في حديثنا عن معاجم الألفاظ — بيان المراحل الاساسية التي مرّت بها حركة التأليف في هذا الباب حتى انتهت الى وضع معاجم المعاني الجامعة.

المرحلة الاولى : — وهي مرحلة تأليف الرسائل الصغيرة التي يستقل كل منها بألفاظ معنىً أو جنسٍ من أجناس النبات أو الحيوان، مثل **كتاب المطر** و **كتاب اللبأ واللبن** لأبي زيد الأنصاري [١]، ومثل **كتاب الخيل** و **كتاب الابل** و **كتاب الشاء** و **كتاب النخل والكرم** للأصمعي [٢] وغيرها كثير، وقد سبق لنا أن تحدثنا عن هذه الرسائل وأوردنا نماذج منها في الفصل الأول من هذ الكتاب فراجعه هناك [٣].

المرحلة الثانية، — أما المرحلة الثانية فهي مرحلة تأليف كتب أوسع حجماً وموضوعاً من الرسائل السابقة، كتبٍ جامعةٍ لعدد كبير من الأبواب والمعاني، ولكنها لاتبلغ درجة المعاجم في استيعابها وشمولها. وربما كان اللغوي المشهور يعقوب بن السكّيت [٤] أول من ألف

---

(١) انظر ترجمته في ص١٢ من هذا الكتاب.

(٢) » » » ١٥ » »

(٣) انظر ص١٩-٢١ من هذا الكتاب.

(٤) أبو يوسف يعقوب بن اسحق المعروف بابن السكيت. لغوي مشهور توفي في بغداد في خلافة المتوكل سنة ٢٤٤ هـ. من كتبه المشهورة، غير كتاب (الألفاظ)-

في هذا الموضوع . فلابن السكّيت كتاب معروف اسمه **كتاب الالفاظ** هو أقدم كتاب وصلنا في هذا الباب[١] وقد جعل ابن السكيت كتابه هذا في اكثر من مئة وخمسين باباً ، تناول في كل باب منها معنى من المعاني ذاكراً الألفاظ التي تستعمل في التعبير عن جميع أحوال هذا المعنى ودرجاته. وقد حاول المصنف أن يتناول في أبواب كتابه أهم اغراض الكلام مادية ومعنوية . فهناك أبواب الألفاظ الدالة على الطول والقصر والحسن والدمامة والهزال وغير أولئك من الصفات الجسمية ، كما ان هناك أبواباً للشح والغضب والكبر والذكاء والشجاعة والجبن والعقل والحمق والشره والكذب والطمع وما أشبهها من الصفات الخلقية . وهناك أبواب تتصل بالجوع والعطش والنوم والمرض والسفر والاجتماع والتفرق والزواج وما الى ذلك من أفعالٍ واحوالٍ انسانية ، وهناك أيضاً أبواب كثيرة تتصل بمظاهر الطبيعة من ليلٍ ونهارٍ وشمسٍ وقمرٍ ومياهٍ وأزمنةٍ وبردٍ وحرٍ ، وأبواب أخرى تتصل بحوائج الانسان ومظاهره من ثياب وحلي وسلاح وطعام وشراب وآنية ... نعم ، إنّ ابن السكيت لم يبلغ بكتابه هذا من حيث الابواب مبلغ المعاجم التي

= كتاب (إصلاح المنطق) طبع في مصر عام ١٩٤٩ .وله أيضاً كتاب(الأضداد)طبع مع عدد من كتب الأضداد المماثلة في بيروت عام ١٩١٣ بعناية المستشرق هفنر .

(١) طبع هذا الكتاب طبعة مزودة بالفهارس والشروح القيمة ، وذلك في المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٨٩٥ بعنوان(كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ).

ستؤلف فيما بعد ، كما أنه لم يصنف أبواب الكتاب تصنيفاً منطقياً بل جعلها تتتابع دون ترتيبٍ أو فكرةٍ مُوجّهة . ولكنه على كل حال قد استطاع في مصنفه هذا أن يمضي بتأليف معاجم المعاني خطوةً كبيرة الى الأمام.

ولعلّه من المستحسن أن نثبت فيما يلي بعض النماذج نقتبسها من هذا الكتاب كي نستدلّ بها على الطريقة التي اتبعها المؤلف في تصنيفه .

قال ابن السكيت في **باب الغضب والحدة والعداوة** ، وهو الباب العاشر من الكتاب (١) :

« الأصمعي : يقال : لقد ضَمِدَ عليه يضمد ضَمَداً إذا غضب . قال النابغة الذبياني :

ومن عصاك فعاقبه معاقبةً تنهى الظلوم ولا تقعد على ضَمَدِ (٢)

قال : وقد حَرِدَ حَرَداً ، وحَرِبَ حَرَباً إذا هاج وغضب . وحَرّبته فحرِب ، وحرّشته وهيّجته . قال الهذلي :

كأنّ محرّباً من أسد ترْجٍ ينازلهم ، لنابَيْه قَبيبُ (٣)

قال : ويقال : أغَدَّ عليه إغداداً ـ وأصله من غدّة البعير ـ ، وهو

---

(١) انظر ص ٧٨ من كتاب الألفاظ لابن السكيت ومابعدها .

(٢) البيت من دالية النابغة المعلقة في مخاطبة النعمان بن المنذر . ومعنى قوله (ولا تقعد على ضَمَد) أي لا تقعد مغتاظاً ففي قدرتك معاقبة من عصاك .

(٣) المحرّب : الغضبان . وترج : موضع كثير الأسد . والقبيب هنا الصوت الذي يصدر عن الأنياب إذا حك بعضها على بعض .

مُغِدٌّ ومُسمغِدٌّ إذا انتفخ من الغضب. وورَمَ وضَرِمَ ضَرَماً واحتدم عليه إذا تحرّق عليه. وأصله من احتدام الحرّ. ويقال: إنه لينفِط غضباً ويقال: قد ازْمأكّ، واصمأكّ أي غضب. وقد اضفَأدّ اضْفِئداداً إذا انتفخ من الغضب. ويقال: هو يَنْغَرُ عليه، إذا غلى عليه من الغضب. ويقال: قد تنغّر. وإنما أخذ من نَغَران القدر وهو غليها. ويقال: قد شَرِيَ، وهو أن يتمادى ويتابع في غضبه. ويقال: شَرِيَ البرقُ، وهو يَشرَى إذا كثر لمعانه. قال طرفة:

يامن رأى البرق يشرى في مُلَمَّعَةٍ
كالنار أذكى لها المستوقدُ السَّعفا (١)

... وهكذا إلى آخر ما جاء في هذا الباب.

وهذا بعض ما ذكره ابن السكيت في **باب الفقر والجدب**، وهو الباب الثاني من الكتاب (٢):

« قال يونُس: الفقير يكون له بعض ما يقيمه، والمسكين الذي لا شيء له. قال الراعي:

أما الفقير الذي كانت حلوبتُه وفقَ العيالِ فلم يُترك له سَبَدُ (٣)

---

(١) الملمّعة: السحابة تلمع بالبرق. والسعف: اغصان النخل اليابسة.

(٢) انظر ص ١٥ من كتاب الألفاظ لابن السكيت وما بعدها.

(٣) الحلوبة: التي تُحتلب، وفق العيال: كافية للعيال، لم يترك له سبَد: لم يترك له شيء. والبيت من قصيدة يشكو بها الراعي إلى عبد الملك بن مروان ظلم السعاة على الصدقات، وأنهم لم يتركوا للفقير شيئاً.

قال : وقلت لأعرابي : أفقير أنت أم مسكين ؟ فقال : لا والله ، بل مسكين . قال أبو زيد : ومنهم المُقْتِر وهو المُحْوِج والمُقِلّ ، وهو الإقتار والإقلال والإحواج، وهو شيءٌ واحد وهو من الفقر، وفيهنّ بقية من نشبٍ لا يغمره ولا يغمر عياله . ويقال للمُقتِر : إن به لخصاصة . والمُخِلّ مثل المقتر . يقال: أخلّ يُخِلّ إخلالاً ، والاسم الخلة . والمعوز قريب من المخل وهو أسوأهما حالا ، يقال: أعوز يُعوز إعوازاً ، والاسم العَوز . ويقالُ في الفاقة : إنه لمُفتاق ، وإنه لذوفاقةٍ . وفي الحاجة : إنه لمحتاج ، وإنه لذو حاجة وإنه لمسكين ، (وليس فيها فعلٌ ، وحكى الفرّاء : هو يتمسكن لربّه) . ومنهم المُعْدِم ، يقال : أعدمَ يُعدم إعداماً ، الاسم العُدمُ . ومنهم الصعلوك وهو الذي ليس له شيءٌ ، (وليس فيها فعل . وحكى غيره : تصعلك) . ويقال : إن به لفاقةً وإنه لذو فاقة ، وإن به لخصاصة ، وإنه لذو خصاصةٍ . ومنهم السِّبروت ، وهو مثل الصعلوك ، وامرأة سبروتة ...

أبو زيد : ومنهم الفقير المدقع وهو الذي لا يتكرّم عن شيءٍ أخذه وإن قلّ . وأدقع فلانٌ إلى فلان في الشتيمة وفي أي فعلٍ ما كان . وأدقع له . قال الأصمعي : المدقع الذي لصق بالدقعاء وهي التراب . أبو زيد : ومنهم القانع وهو الذي يتعرّض لما في أيدي الناس . يقال : قد قَنَع فلان إلى فلان قنوعاً ، وهو ذم، وهو الطّمع حيث كان. الأصمعي : القانع السائل والقنوع المسألة . قال الشماخ :

لمَالُ المرء يصلحه فيُغني مفاقِره أعفّ من القنوع[1]

. . . . وهكذا إلى آخر هذا الباب .

تتضح من هذه النماذج القليلة التي أثبتناها خصائص طريقة ابن السكيت في كتابه هذا . فهو يحاول في كل باب يعقده لمعنىً من المعاني أن يستقصي جميع الألفاظ التي تستعمل في ذلك المعنى . وهو في هذا الاستقصاء يأتي على كثير من الألفاظ المتداولة المأنوسة، كما يذكر كثيراً من الغريب والمهجور . ومما يستحق الثناء أيضاً عناية المصنف بذكر مصادره فهو يكثر من الاشارة إلى العلماء الذين ينقل عنهم كالأصمعي وأبي زيد ويونس بن حبيب وغيرهم . كما أن حرصه على الاستشهاد لمعاني الألفاظ التي يذكرها بالشعر الجيّد الموثوق أمرٌ جدير بالثناء أيضاً . وإن كان لنا ما نأخذه عليه فهو أن شروحه وتفاسيره تبقى في كثير من الأحيان غير كافيةٍ لبيان الفروق بين المترادفات التي يوردها .

والكتاب الثاني الذي يستحق الذكر في هذا الباب هو **الألفاظ الكتابية** لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني[2] . وهو كتاب من كتب

---

(١) المقصود باصلاح المال الاقتصاد وترك الاسراف . والمفاقر : الفقر .

(٢) أديب ولغوي توفي نحو سنة ٣٢٠هـ . وقد طبع كتابه (الالفاظ الكتابية) عدة طبعات أجودها طبعة بيروت عام ١٨٨٥ بعناية لويس شيخو . وتمتاز هذه الطبعة بمفتاح للكتاب مرتبٍ على حروف المعجم في نحو أربعين صفحة يستدل به الطالب على مواطن العبارات والالفاظ التي ينشدها .

المعاني لطيف مختصر يمثل كسابقه هذه المرحلة الثانية من مراحل حركة تأليف معاجم المعاني .

وقد حذا الهمذاني حذو ابن السكيت في تقسيم كتابه إلى أبواب كثيرة العدد يختص كل منها بمعنى من المعاني . والموضوعات في الكتابين تكاد تكون متقاربة من حيث العدد والغرض . والفارق الرئيسي بين الكتابين أن الهمذاني لم يعن بالمفردات واستقصائها كما فعل ابن السكيت ، بل كان همّه في التراكيب والعبارات . فقد اختار جلّ مادة كتابه مما يرد على أقلام الكتاب المشهورين من عبارات جميلة وازدواجات بارعة . وغايته من ذلك خدمة الكتّاب الناشئين وتزويدهم بما يحتاجون إليه في صناعتهم من مختارات جيّدة تتصل بمعظم أغراض الكلام . ومن هنا كان عنوان الكتاب : **الألفاظ الكتابية** ، إذ أنه من الكتّاب واليهم . وقد صرّح الهمذاني بغرضه هذا في مقدمة كتابه التي يقول فيها :

« الكتابة من أعلى الصناعات وأكرمها وأسمقها بأصحابها إلى معالي الأمور وشرائف الرتب ، فهم بين سيّد ومدبّر سيادة ، وملكٍ وسائس دولة ومملكة . وبلغت بقوم منهم منزلةَ الخلافة وأعطتهم أزمّة الملك . والمتصرّفون فيها في الحظّ منها بين متعلقٍ بالسّماكِ مضاءً ونفاذاً ، وبين متنكّس في الحضيض نقصاً وتخلفاً . . . ووجدت من المتأخرين في الآلة قوماً أخطأهم الاتساع في الكلام ، فهم متعلقون في مخاطباتهم وكتبهم باللفظة الغريبة والحرف الشاذ ليتميزوا بذلك من العامة ويرتفعوا عند

الأغبياء عن طبقة الحشو . والخَرَس والبكم أحسن من النطق في هذا المذهب الذي تذهب إليه هذه الطائفة في الخطاب . . . . . فجمعتُ في كتابي هذا لجميع الطبقات أجناساً من ألفاظ كتاب الرسائل والدواوين البعيدة من الاشتباه والالتباس ، السليمة من التقعير ، المحمولة على الاستعارة والتلويح ، على مذاهب الكتّاب وأهل الخَطابة ، دونَ مذاهب المتشدّقين والمتفاصحين من المتأدبين والمؤدّبين المتكلفين ، البعيدةِ المرام على قربها من الأفهام ، في كل فنّ من فنون المخاطبات ، ملتقطة من كتب الرسائل وأفواه الرجال وعَرَصات الدواوين ومحافل الرؤساء ، ومتخيّرة من بطون الدفاتر ومصنّفات العلماء . فليست لفظة منها إلاّ وهي تنوب عن أختها في موضعها من المكاتبة أو تقوم مقامها في المحاورة إمّا بمشاكلة أو بمجانسة أو بمجاورة . فاذا عرفها العارف بها وبأماكنها التي توضع فيها كانت له مادة قوية وعوناً وظهيراً . . . . الخ »

ويظهر أن هذا الكتاب قد أصاب الغرض الذي كان يرمي به إليه مؤلفه ، فتلقفته أيدي الكتّاب الناشئين وأفادوا منه في صناعتهم فائدة جلىً مما جعل كاتب البويهيين ووزيرهم المشهور الصاحب بن عباد يقول : «لو أدركت عبد الرحمن بن عيسى مصنّف كتاب الألفاظ لأمرت بقطع يده . » فسئل عن السبب فقال : « جمع شذور العربية الجزلة في أوراقٍ يسيرة فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ورفع عن المتأدبين تعب الدرس والحفظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمة . » .

ولنثبت فيما يلي نموذجاً نختاره من هذا الكتاب ليدرك القارىء الفارق الذي أشرنا إليه بينه وبين سابقه .

قال الهمذاني في الباب الأول من كتابه بمعنى : أَصْلَح الفاسدَ .

« تقول : لَمَّ فلان الشَّعَث ، وضَمّ النشر ، ورمّ الرث ، وسدّ الثغر ورقع الخرق ، ورتق الفتق ، وأَصلح الفاسدَ ، وأصلح الخلل ، وجمع الشتات ، وجبر الوهن والوهيَ جميعاً . (يُقال : جبرتُ الكسر جبراً وأجبرت فلاناً على الامر إجباراً) ويقال : أَسا الكلم (مقصور) يأسوه أسواً ، وأَسي على مصيبته أي حزن يأسى أَسىً ... ويقال : شَعَبَ الصدعَ ، ورَأَبَ الصَّدْعَ ، ورأب الثَّأي[1] رأباً (أخذ من الرؤبة ، وهي قطعة من خشب تُدخل في الجفنة إذا انكسرت تُصلح بها ؛ قال كعب بن مالك الانصاري[2] :

طعنّا طعنة حمراء فيهم حرامٌ رأبها حتى الممات .

ويقال : شَعَبتُ الامرَ إذا أصلحته وشعبته إذا أفسدته أيضاً ، وهذا من الاضداد ، والشُّعوبُ المنيّة لأنها تشعب أي تفرّق . وفي المثل : إنّ دواءَ الشَّقِ أن تحوصه ، أي تخيطه . وسدَّ الثلمةَ ، وأقامَ الأَوَدَ وسدّ الفُرج والخَلل ، وأقام الصَّعر ولأم الصدع . والوصم والخلل

---

(١) الثأي وزان السعي ؛ والثأى وزان الثرى كلاهما بمعنى الفساد والصدع .

(٢) هو صحابي جليل ومن أكابر شعراء الاسلام الاولين . توفي سنة ٥٥ هـ .

والفساد والفتق واحد ، ويقال : أخاف وقوع الوَصم في هذا الأمر . وقوّم الميل وثقّف الأود والعوج ، وداوى السقم ، وداوى الأدواء وحَسَم الداء وسوّى الزيغ . والمَيَل فيما كان خلقة فيقال : في عنقه مَيَل . والمَيْل فعلك ، وميلك إلى الشيء . واذا زدت في اللفظ قلت : رأب متباين الصدع وضمّ متفرق النشر .... الخ »

تتبين بسهولة من هذا النص أن الفكرة التي كانت توجّه الهمذاني في كتابه هذا هي غير تلك التي كانت توجه سلفه ابن السكّيت في كتابه الذي مرّ ذكره . فعمل الهمذاني في (الألفاظ الكتابية) قائم على الانتقاء . فهو يصطفي العبارات التي تعوّد الكتّاب استعمالها ويثبتها مترادفة في كل باب من أبواب كتابه . أما الألفاظ المفردة فما أقل مايعنى بذكرها . وهو في عمله هذا أديب بيّن الذوق ، لاتكاد تلمح بين مختاراته لفظة مهجورة أو تعبيراً غريباً . على عكس ابن السكّيت الذي كان في مصنّفه لغوياً معجمياً قبل كل شيء ، فعمله قائم على الاستقصاء والاستيعاب ، وهو يثبت كل لفظة بالمعنى المراد حتى ولو كانت مهجورة أو نابية .

والكتاب الثالث والأخير الذي نذكره مثالاً لما ألف من الكتب في هذه المرحلة هو كتاب **الألفاظ** او **جواهر الألفاظ** لمؤلفه قدامة ابن جعفر (١) .

---

(١) هو أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي كاتب وناقد وأديب مشهور . كان نصرانياً وأسلم على يد المكتفي بالله العباسي ، وتوفي بعد سنة ٣٢٠ هـ . من كتبه —

ألف قدامة كتابه هذا بعد أن ألف الهمذاني كتابه **الألفاظ الكتابية** الذي تحدثنا عنه ويظهر أن كتاب الهمذاني لم يرق في عين قدامة كثيراً. ذلك أن قدامة شديد الولوع بالبديع. وولوعه هذا واضح غاية الوضوح في كتابه المشهور **نقد الشعر** الذي عني فيه بذكر عدد كبير من المحسنات اللفظية والمعنوية التي لم يذكرها قبله أحد. وكتاب الهمذاني، على غناه بالتراكيب الجميلة، لا يُشبع نهم الكاتب البديعي المغرم قبل كل شيء بالازدواجات والأسجاع. وقد أشار قدامة بن جعفر بصراحة الى هذا في مقدمة كتابه معتبراً إياه نقصاً، وذلك حين يقول:

« هذا كتاب يشتمل على ألفاظ مختلفة تدلّ على معانٍ متفقة مؤتلفة وأبواب موضونة، بحروف مسجّعة مكنونة، متقاربة الاوزان والمباني، متناسبة الوجوه والمعاني، تونق أبصار الناظرين، وتروق بصائر المتوسمين. وتتسع بها مذاهب الخِطاب، وتنفسح معها بلاغة الكتاب. لان مؤلف الكلام البليغ الفصيح، واللفظ المسجّع الصحيح، كناظم الجوهر المرصّع، ومركب العقد الموشّع: يعدّ أكثر أصنافه، ليسهل عليه اتقان رصفه وائتلافه. وقد ألف للألفاظ غيرُ كتاب، فقيل: أصلح الفاسد، وضمّ النشر، وسدّ الثلم، وأساس الكلم [1]. فوزن (أصلح الفاسد)

— المطبوعة كتاب (الخراج) وكتاب (نقد الشعر). أما كتابه (جواهر الألفاظ) فقد طبع عام ١٩٣٢ في مصر بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

(١) الاشارة هنا واضحة الى كتاب (الالفاظ الكتابية) فهذه العبارات وردت في أول باب من أبوابه.

مخالف لوزن (ضم النشر) وكذلك (سدٌّ) و (أسا). ولو قيل : أصلح الفاسدَ وألف الشاردَ وسدّد العاند ، وأصلح مافسد وقوّم الأَود ، أو قيل : صلح فاسده ورجع شارده ، لكان في استقامة الوزن واتساق السجع عوضٌ من تباين اللفظ .»[١]

وعلى هذا الأساس من العناية بالسجع والتوازن بنى قدامة كتابه الضخم ،فرصف العبارات المترادفة جنباً إلى جنب مسجوعة متوازية . ولانشك أن كتّاب القرن الرابع والعصور التالية وجدوا في هذا الكتاب معيناً لاينضب لفهم المتكلّف ، ومادة تؤمن لهم مايحتاجون اليه من ازدواج في التعبير ، ذلك الازدواج الذي كان ركناً من أركان الكتابة آنذاك .

ولا بأس أن نذكر هنا على سبيل الموازنة ما أورده قدامة في الباب الأول من كتابه بمعنى **أصلح الفاسد** ، بعد ان أوردنا ما ذكره الهمذاني في هذا المعنى ، وبذلك ينفسح أمام القارىء باب المقارنة بين الكتابين ،قال قدامة :

« يقال : أصلح الفاسدَ ، وحصد المعاند ، وأقام المائد ،وقوّم الخائد، وردّ الشارد . ولمّ الشعث ، وكفّ الحدث ، ورمّ ما شذّ وانتكث . وضمّ النشر ، وجانب الشرّ والاشر . ورمّ الرثّ ، ووصل ما قُطع واجتُثّ . وجمع الشتاتَ ، وهجر الظلم والاعنات . وأعاد المنهدم،وداوى

(١) انظر : جواهر الالفاظ ، ص ٢ - ٣ .

السَّقِم ، وأسا الكلم . ورتق الفتق ، ورقع الوهيَ والخَرق . وشعب الصدع ، ورأبَ القطع . ورأب الثأيَ ، ورتق الوهيَ . وحاصَ الشَّقّ ، وألحم الفتق . وسدّ الثلمة ، وكشف الغمَّة . وسدَّ الفُرَج ، وسكّن الرَّهج . وأقامَ الأود ، وطمسَ الكفر والعند . وسدّ الخلل ، وردّ الخجل ، وثقّف الخطل ، وعدل المَيَل ، ونفى الوَجَل . وأقام الصَّعَر والصَّوَر ، وثقّف الزيغ والزور ... الخ » .

وواضح بعد هذا أننا قد ابتعدنا في مثل هذه النصوص المزخرفة عن الفكرة المعجمية . فالشروح لا وجود لها ، وليس هنالك بيان لما بين معاني هذه المترادفات من فروق . واذا كان في رصف العبارات على هذا النمط فائدة وخدمة للكتّاب حين كانت صناعتهم قائمة على أصول من الزينة والمهارة اللفظية ، فإن هذه الفائدة تتضاءل في عصرنا بعد أن أصبح فن الكتابة قائماً على مسايرة الفكرة ، والاقتصاد كلّ الاقتصاد في الزخرف ، والعناية كلّ العناية في دقة التعبير .

وليس من شكّ بعد هذا في أن **كتاب الألفاظ** لابن السكيت — على سبقه للكتب الأخرى — يبقى في نظرنا أجدى الكتب الثلاثة التي ذكرناها ، وأحفلها بالفائدة لبني ازماننا ، وأقربها إلى فكرة المعجم .

المرحلة الثالثة . — أما المرحلة الثالثة والأخيرة فهي المرحلة الختامية ، أي مرحلة تأليف معاجم المعاني حقاً . ذلك أن الكتب الثلاثة التي

ذكرناها أثناء كلامنا على المرحلة السابقة، على رغم تعدّد أبوابها، لا يمكن اعتبارها معاجم حقيقية ؛ فهي بعيدة عن الاستيعاب والشمول من جهة ، كما أنها من جهة ثانية لم يُلتزم في تصنيفها وتنسيق أبوابها نظام معين . وهاتان الصفتان : الشمول والترتيب شرطان ملازمان لفكرة المعجم .

أما كتب المعاني التي ألفت في المرحلة الثالثة فقد استطاعت تحقيق هذين الشرطين الى حد كبير، فخطت بذلك حركة تأليف المعاجم خطوتها الأخيرة في طريق النمو الطبيعي وبلغت غايتها من التكامل والنضج .

وأشهر الكتب التي تمثل في نظرنا هذه المرحلة تمثيلاً صحيحاً اثنان هما : **فقه اللغة** للثعالبي [١]، و**المخصص** لابن سيده الأندلسي [٢]. وقد ظهر أولهما في أواخر القرن الهجري الرابع وثانيهما خلال النصف الأول من القرن الخامس . وسنتحدث عن كل منهما حديثاً موجزاً فيما يلي :

فقه اللغة. — استقى الثعالبي مادة كتابه — كما ذكر في مقدمته — من كتب

---

(١) هو ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسا بوري ، ولد في منتصف القرن الهجري الرابع وتوفي سنة ٤٢٩ هـ . يعد من اشهر أدباء زمانه. من اذيع تصانيفه صيتاً كتاب (يتيمة الدهر) الذي أرخ فيه لشعراء عصره وجمع فيه نخبة صالحة من اشعارهم . أما كتابه (فقه اللغة) فمعروف كثير التداول ، طبع حتى اليوم في مصر وفي لبنان عدة طبعات .

(٢) : سبقت ترجمة ابن سيده في هذا الكتاب ص(٢٥) حاشية (٢). أما كتابه (المخصص) فقد طبع في المطبعة الاميرية بمصر في ١٧ جزءا بين عامي ١٣١٦-١٣٢١ هـ.

أئمة اللغة أمثال الخليل ، والاصمعي وابى عمرو الشيباني والكسائي والفراء وأبي زيد وأبي عبيدة وابن الأعرابي والنضر بن شميل وابن دريد وابن خالويه والأزهري وغيرهم . فجاء كتابه بعد جهدٍ طويل جامعاً وافياً ، يمتاز فقه اللغة أولاً بحسن ترتيبه . فهو مقسوم الى ثلاثين باباً كبيراً ، كل منها يتناول معنىً من المعاني الأساسية . وكل باب مقسوم بدوره الى عدد من الفصول الصغيرة يجمع كلٌّ منها الألفاظ المستعملة في التعبير عن فرعٍ من فروع المعنى الأصلي الذي عُقد عليه الباب كله. فالباب العشرون من الكتاب مثلاً موضوعه الأصوات وحكاياتها . ويضمّ هذا الباب ثلاثة وعشرين فصلاً ينطوي كل منها على الألفاظ المستعملة في التعبير عن نوع معين من الأصوات : ففصل في الأصوات الخفية ، وفصل في الأصوات الشديدة ، وفصل في أصوات النائم ، وفصل في أصوات الخيل ، وفصل في أصوات السباع ، والوحوش ، والطيور ، والحشرات ، والماء والنار ... الخ . والباب الرابع عشر من الكتاب موضوعه أعمار الناس والدواب . ويضم هذا الباب سبعة عشر فصلاً يتناول كلٌّ منها شعبة من شعب الموضوع الاساسي : ففصل في ترتيب سن الغلام ، وآخر في ظهور الشيب ، وثالث في الشيخوخة والكبر ، وفصل في ترتيب سن المرأة ، وفصل في اسماء صغار مختلف الحيوانات ، وفصل في ترتيب سن كل من البعير والفرس والبقرة الوحشية والشاة والعنز والظبي... الخ . وليس من شك في أن هذا الترتيب يسهّل

الى حد كبير الرجوع الى الكتاب والافادة منه .

ويمتاز **فقه اللغة** أيضاً من كثير من كتب المعاني التي سبقته بأنه ككتاب ابن السكيت، يوجه عنايته إلى إيراد الألفاظ المفردة لا إلى التراكيب المنتقاة ، وبأنه يبذل وسعه في سبيل تحديد مدلولات هذه الألفاظ وبيان ما بينها من فروق .

وهذه أمثلة من الكتاب توضح مزاياه التي أشرنا إليها :

جاء في الفصل الثالث عشر من الباب الخامس عشر **في تفصيل كيفية النظر وهيئاته في اختلاف أحواله** : (١)

« إذا نظر الانسان إلى الشيء بمجامع عينه قيل : **رمقه** . فإن نظر إليه من جانب أذنه قيل : **لحظه** . فإن نظر إليه بعجلة قيل : **لمحه** . فإن رماه ببصره مع حدّة نظر قيل : **حرمه** بطرفه ، (وفي حديث ابن مسعود : حدّث القوم ماحدجوك بأبصارهم) . فإن نظر إليه بشدة وحدّة قيل **ارشقه وأسف** النظر إليه. فإن نظر إليه نظر المتعجب منه والكاره له والمبغض إياه قيل : **شفنه** وشَفَن إليه شفوناً وشَفناً . فإن أعاره لحظ العداوة قيل : نظر اليه **شزراً**. فان نظر إليه بعين المحبّة قيل: نظر إليه **نظرة ذي علق** (٢). فإن نظر إليه نظر المستثبت قيل : **توضحه** . فإن نظر واضعاً يده على

---

(١) انظر ص٩٧ فما يلي من كتاب فقه اللغة ، طبعة بيروت سنة ١٩٠٣

(٢) أي : ذي علاقة وهي الهوى .

حاجبه مستظلاً بها من الشمس ليستبين المنظور إليه قيل : **استكفه** ، **واستوضه واستشرفه** . فإن نشر الثوب ورفعه لينظر إلى صفاقته[١] أو سخافته[٢] ويرى عواراً[٣] إن كان به قيل : **استشفه** . فإن نظر إلى الشيء كاللمحة ثم خفي عنه قيل : **لاحه** لوحةً ، كما قال الشاعر : « وهل تنفعني لوحةٌ لو ألوحها ؟ » فإن نظر إلى جميع ما في المكان حتى يعرفه قيل : **نفضه** نفضاً ، فإن نظر في كتاب أو حساب ليهذبه ويستكشف صحته وسقمه قيل **تصفحه** . فإن فتح جميع عينيه لشدّة النظر قيل : **حرق** . فإن لاءلأها قيل : **برق** . فإن انقلب حملاق[٤] عينيه قيل : **حملق** . فإن غاب سواد عينيه من الفزع قيل : **برق** بصره . فإن فتح عين مفزّع أو مهدّد قيل : **حمج** . فإن بالغ في فتحها وأحدّ النظر عند الخوف قيل : **حرج** . فإن كسر عينه في النظر قيل : **دنقش وطرفش** (عن أبي عمرو)[٥] . فإن فتح عينيه وجعل لا يطرف قيل : **شفص** . (وفي القرآن :

---

(١) أي : متانته وكثافة نسجه .

(٢) أي : رقّة نسجه .

(٣) العوار ـ بفتح العين وضمها ـ خرق أو شق في الثوب أو عيب فيه .

(٤) اختلف في معنى الحملاق فقيل هو ما تغطيه الجفون من بياض العين ، وقيل بل هو باطن الاجفان .

(٥) أي : أبي عمرو اسحاق بن مرار الشيباني وهو راوية ولغوي مشهور توفي سنة ٢١٣ هـ .

فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا [١]) . فإن أدام النظر مع سكون قيل : **أسجد** (عن أبي عمرو) . فإن نظر إلى أفق الهلال لليلته ليراه قيل : **نبصره** . فإن أتبع الشيء بصره قيل : **أنأره البَصَر وأنأره اليه** . » اهـ .

وجاء في الفصل الخامس والعشرين من الباب التاسع عشر **في تفصيل الطيران واشكاله وهيئاته** : [٢]

« إذا حرك الطائر جناحيه ورجلاه بالارض قيل : **رف** ، فإذا طار قريباً على وجه الأرض قيل : **اسف** . فإذا كان مقصوصاً وطار كأنه يردّ جناحيه إلى ما خلفه قيل **حرف** (ومنه سمي مجداف السفينة) . فاذا حرّك جناحيه في طيرانه قريباً من الأرض وحام حول الشيء يريد ان يقع عليه قيل : **رفرف** ، فإذا بسط جناحيه في الهواء وسكّنهما فلم يحرّكهما كما تفعل الحدأ والرّخم [٣] قيل : **صف** (وفي القرآن : والطير صافات) [٤] . فإذا ترامى بنفسه في الطيران قيل : **زف** زفيفاً ، فإذا انحدر من بلاد البرد إلى بلاد الحرّ قيل : **قطع** قطوعاً وقطاعاً . يقال : كان ذلك عند قَطاع الطير » .

هذه الأمثلة التي أوردناها توضح ما سبق أن أشرنا إليه من مزايا

---

(١) سورة القلم ، الآية : ٤٤ ، وسورة المعارج ، الآية : ٤٥ .

(٢) انظر : فقه اللغة ، ص : ١٩٢ .

(٣) الحِدَأ جمع حِدَأة وهي طائر معروف من الجوارح نسميه (الشوحة) . والرخم جمع رَخمة وهي أيضاً من أنواع الجوارح.

(٤) سورة النور ، الآية : ٤٢ .

فقه اللغة . فليس هم الثعالبي إيراد المفردات في كل فصل من فصول كتابه على أنها مترادفات **ليست لفظة منها إلا وهي تنوب عن اختها في موضعها من المكاتبة او تقوم مقامها في المحاورة** ، كما يقول الهمذاني في مقدمة **الالفاظ الكتابية** ، بل هو كما قلنا يحاول جهده أن يحدد مدلول كل لفظة، وموطن استعمالها ، والفرق بينها وبين ما يمكن اعتباره مرادفاً لها .

ولا شك في أن مثل هذا الكتاب الثمين لا يمكن أن يصدر إلا عمن فقه اللغة العربية تمام الفقه وتمثّلها أكمل تمثل . وهو من جهة ثانية يظهرنا على ما تمتاز به اللغة العربية في كثير من المعاني من قدرة على التعبير الواضح وملاحظة للفروق الدقيقة بين المفاهيم المتقاربة ، تلك الفروق التي كثيراً ما تقف اللغات الاخرى حائرة دون التعبير عنها .

المخصص .— أما كتاب **المخصص** لابن سيده الأندلسي فهو أضخم معجم للمعاني تعرفه المكتبة العربية ؛ نثر فيه المؤلف كل ما ألف قبله من رسائل ومعاجم . وقد أشار إلى ذلك في مقدّمة الكتاب حين عدّد مصادره فقال : « فأما ما نثرت عليه من الكتب فالمصنّف في غريب الحديث لأبي عبيد [١] ، وجميع كتب يعقوب [٢] كالاصلاح والألفاظ . . . وكتابا

---

(١) هو أبو عبيد القاسم بن سلام، من شيوخ الحديث والفقه واللغة ، ولد في هراة سنة ١٥٧ هـ ، وولي قضاء طرسوس ، ورحل الى مصر وبغداد ، وحج فتوفي في مكة سنة ٢٢٤ هـ . وكتابه في (غريب الحديث) من أجل ماوضع في بابه .

(٢) هو ابن السكيت وقد سبقت ترجمته في ص (٤٥) ، حاشية (٤) .

ثعلب [١] الفصيح والنوادر ، وكتابا أبي حنيفة [٢] في الأنواء والنبات. وغير ذلك من كتب الفرّاء [٣] والأصمعي [٤] وأبي زيد [٥] وأبي حاتم [٦] والمبرّد [٧] وكُراع [٨] والنضر [٩] وابن الأعرابي [١٠] واللّحياني [١١] وابن قتيبة [١٢] وماسقط إليّ من ذلك . وأمامن الكتب

---

(١) هو احمد بن يحيى الشيباني ، الملقب بثعلب ، امام الكوفة في اللغة والنحو في عصره توفي ببغداد سنة ٢٩١ هـ . طبع كتابه (الفصيح) في اوربا ثم في مصر . ولايعرف لثعلب كتاب باسم النوادر . ولعل ابن سيده يشير الى كتاب (النوادر) لابن الاعرابي الذي رواه عنه تلميذه ثعلب .

(٢) : هو ابو حنيفة احمد بن داودالدينوري من كبار علماءالقرن الهجري الثالث توفي نحو سنة ٢٨٢ هـ .

(٣) هو يحيى بن زياد المعروف بالفراء من أئمة الكوفة في اللغة والنحو توفي نحو سنة ١٦٠ هـ .

(٤) سبقت ترجمة الاصمعي في ص (١٥) ، حاشية (٢)

(٥) سبقت ترجمة ابي زيد الانصاري في ص (١٢) حاشية (١)

(٦) ، (٧) ، (٨) ، (٩) ، (١٠) ، (١١) ، (١٢) : ابوحاتم سهل بن محمد السجستاني المتوفي سنة ٢٤٨ هـ ، وابو العباس محمدبن يزيد المبرد المتوفي سنة ٢٨٦هـ ، وعلي بن الحسين الرؤاسي الملقب بكراع النمل المتوفي نحو سنة ٣٠٧ هـ ، وابو الحسن النضر بن شميل التميمي المازني المتوفي سنة (٢٠٣) هـ ، وأبو عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الاعرابي المتوفي سنة ٢٣١ هـ ، وابو الحسن علي بن حازم اللحياني المتوفى سنة ٢١٥ هـ ، وابومحمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦ ، كلهم من مشهوري علماء اللغة والادب ، عاشوا في القرنين الثاني والثالث للهجرة . ولهم جميعاً مصنفات لغوية أفاد منها ابن سيده في تأليف (المخصص) .

المجنَّسة [١] فالجمهرة [٢] والعين [٣] وهذا الكتاب الموسوم بالبارع صنعة أبي علي اسماعيل بن القاسم القالي اللغوي [٤] الوارد على بنى أميّة بأندلس وو . . وو . . »[٥].

وهذا الثبَت الطويل من المصادر يدلّ على أن المؤلف لم يدّخر وسعا لجعل كتابه كاملاً شاملاً .

ولعلّ **المخصص** هو أحسن كتب المعاني القديمة التي بين أيدينا تبويباً. فهذا المعجم مقسَّم إلى عددٍ من الكتب المسهبة تحمل العناوين التالية : خلق الانسان ، الغرائز ، النساء ، اللباس ، الطعام ، الأمراض ، المنازل ، السلاح ، الخيل ، الإبل ، الغنم ، الوحوش ، الحشرات الطير ، الأنواء والسماء والفلك ، الدهور والأزمنة . الأهوية والرياح والماء ، النخيل والنبات ، المعادن ... الخ .

وكل كتاب من هذه الكتب يُقسم إلى أبوابٍ بعدد مايحتمل المعنى

---

(١) : أي معاجم الألفاظ المرتبة على الحروف .

(٢) : أي (جمهرة) ابن دريد . وقد سبق الكلام على هذا الكتاب ومؤلفه في الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٣) : أي (كتاب العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي . وقد سبق الكلام عليه وعلى مؤلفه في الفصل الأول أيضاً .

(٤) : سبقت ترجمة القالي في ص (٢٤) ، حاشية (٢) .

(٥) : انظر مقدمة المخصص ، ص ١٢ .

الأصلي من فروع . وهذه الطريقة شبيهة بطريقة الثعالبي قبله في فقه اللغة ، إلاّ أنها أكثر إحكاما . فنظرة واحدة إلى عناوين الفصول التي ذكرناها ترينا كيف ينتقل المؤلف من الانسان وطباعه وحوائجه إلى الحيوان، بادئاً بألصق فصائله بالانسان . فإذا انتهى من الكائنات الحيّة انتقل إلى الحديث عن السماء والزمان وعوارض الطبيعة من رياح ومياه وبحور ، ثم إلى الكلام على النباتات والمعادن ... وهكذا إلى آخر الكتاب . نعم ، إن القارىء لهذا المعجم لابدّ أن يلمح في تتابع فصوله وأبوابه بعض الخلل من آن إلى آخر . ولكنه يظلّ كما قلنا — ولو من حيث الخطوط الكبرى — خير معاجمنا الكبرى ترتيباً . وقد أشار ابن سيده في مقدمة معجمه إلى حرصه على تنظيم أبوابه واعتداده بهذا التنظيم فقال :

« فأما فضائل هذا الكتاب من قِبل كيفية وضعه ، فمنها تقديم الأعمّ فالأعمّ على الأخصّ فالأخصّ ، والإتيان بالكليات قبل الجزئيات ، والابتداء بالجواهر والتثقفية بالأعراض على مايستحقه من التقديم والتأخير ، وتقديمنا كم على كيف ، وشدّة المحافظة على التقييد والتحليل . مثال ذلك ما وصفته في صدر هذا الكتاب حين شرعت في القول على خلق الانسان ، فبدأت بتنقله وتكوّنه شيئاً فشيئاً ، ثم أردفت بكلية جوهره ، ثم بطوائفه وهي الجواهر التي تأتلف منها كليته ، ثم ما يلحقه من العِظَم والصِغَر ، ثم الكيفيات، كالألوان، إلى مايتبعها من

الأعراض والخصال الحميدة والذميمة ... »[١] .

وهنا لابدّ لنا كعادتنا من إيراد بعض النماذج نقتبسها من هذا الكتاب القيّم كي تتكون لدى القارىء فكرة صحيحة عن طريقة المؤلف .

قال في فصل **الجنون**[٢] :

« صاحب العين : هي الجِنّة والمجَنّة والجنون ، جُنّ وأجنّه الله فهو مجنون ... أبو عبيد : اللَمَم والمسُّ من الجنون . ورجل ملموم وممسوس وهو من الجنون . ابن دريد : بفلانٍ خطرة من الجنّ ، أي مسٌّ منه . أبو علي : خاطر من الجنّ كذلك . ابن الأعرابي : خبطةٌ من مسّ . قال : والشيطان يخبط الإنسانَ ويتخبّطه إذا مسّه بأذىً فأجنّه وخبله. ابن دريد : الخُباطُ داءٌ كالجنون . وقال : رجل به سَفْعة من الجنّ ، أي مسّ . أبو عُبيد : الأَوَلَق ـ الجنون ، رجل مألوق ومؤَولَق .. ابن دريد : أُلِقَ الرجل ألقا ، والأُلاق نحو الجنون . أبو زيد : أَلقه الله يألِقه ألقاً . أبو عبيد : العَلِهُ الذي يتردّد متحيّراً ، والمتبلّد مثله ، وأنشد :

عَلِهَت تبلّد في نِهاءِ صُواعقٍ سبعاً تُؤاماً كاملاً أيامها[٣]

---

(١) انظر مقدمة (المخصص) ص ١٠

(٢) المخصص ، ج ٣ ، ص ٥٣ .

(٣) البيت للبيد بن ربيعة من معلقته ، وهو في وصف البقرة الوحشية التي أكل السبع ولدها . فالعله والتبلد معناهما الحيرة والتردد . و (نهاء) جمع (نهي) وهو=

والأَفْكَلُ ـ الرِّعدةُ ... أبو عبيد : الطَّيف ـ الجنونُ ، وأنشد :

فإذا بها ـ وأبيك ـ طيف جنونِ

أبو عبيدة : طيف من الشيطان ، أي يُلِمّ به لَمّاً . قال أبو علي : فقد ثبت مما حكاه أبو زيد من قولهم طاف يَطيف طائفاً أن الطائف مصدر بمعناه مثل العافية والعاقبة ونحو ذلك مما جاء فيه فاعل وفاعلة ، وأنشد :

وتصبح عن غبّ السُّرى وكأنها ألمّ بها من طائف الجنّ أَوْلَقُ ...

ابن السكيت : الخَبَل ـ الجنّ ، وبه خبلٌ أي شيءٌ من أهل الأرض ـ يعني بأهل الأرض الجنّ ـ . ابن دريد : الخَبْل والخَبَل من الجنون ، صاحب العين : وهو الخابل . ابن دريد : الخُلاع كالخبل يصيب الانسان .. وهكذا إلى آخر الفصل . » .

وقال في فصل الشجاعة[1] :

« صاحب العين : الشجاعة شدة القلب عند البأس . ابن السكيت : رجل شجيع وشجاع وامرأة شجاعة وقد تكون الشجاعة في القويّ والضعيف . صاحب العين : رجل شجاع وشجع وأَشجع وامرأة شجعاء وشَجِعة وشجيعة . ابن السكيت : قوم شُجَعاءُ وشُجعان و شِجعان ...

=الغدير . و (صواعق) اسم موضع . و(سبعاً تؤاماً) معناها سبع ليال كاملة مع أيامها فيكون معنى البيت : ان هذه البقرة المسبوعة بقيت تذهب وتجيء حائرة شاردة اللب حول الغدران في الموضع المسمى (صواعق) مدة سبعة أيام بلياليها .

(١) انظر المخصص ، ج٣ ، ص ٥٥

غير واحد : شَجُعَ شجاعة . قال سيبويه : وإذا أراد الرجل أن يدخل نفسه في أمرٍ حتى يضاف إليه ويكونَ من أهله فإنك تقول تفعَّل نحو تشجّع . وقال : شجّعتُ الرجل على الامر ـ حملته عليه . سيبويه : هو يُشَجَّع أي يرمى بذلك ويقال له .... صاحب العين : الأشجع من الرجال ـ الذي كأنّ به جنوناً . وأنشد :

بأشجع أخّاذٍ على الدهر حكمه فمن أيّما تأتي الحوادثُ أفرقُ ؟

أبو عبيد : بَطلٌ بيّن البطولة ... الجمع أبطالٌ ولا يكسّر على غير ذلك . والأنثى بطلة والجمع بَطلات ... غيره : وقد بَطُل . صاحب العين سمّي بذلك لأن جراحته تَبْطُل[1] فلا يكترث لها ولا تُبطلُ نَجادته . ابن جنّي : هو الذي تبطل[2] عنده دماء الاقران بشجاعته . قال أبو علي : الأنكاد ـ الأبطال ...

ابو عبيد: رجل نَجْدٌ ونَجُدو نَجِد و نَجيدٌ من شدة البأس . سيبويه نجدٌ وأنجادٌ ... أبو عبيد : نَجُدَ نَجادَةً والاسم النَّجدة. ابن السكيت: النجد ـ السريع الاجابة إلى الداعي بخير أو شرٍ ، والجمع أنجاد ، وقد أنجده . والكميُّ ـ الشديدُ كأنه يقمع عدوّه . يقال كمى شهادته يكميها قمعها فلم يظهرها . وهو أيضاً الجريءُ المُقدم، كان عليه سلاح أو لم يكن، والجمع أكماء ، حكاها أبو زيد ، فأما الكماة فجمع كامٍ . غيره : الكميّ

---

(١) أي تفسد .

(٢) تذهب ضياعاً وهدراً فلا يثأر لها منه .

– اللابس للسلاح ، وقد تكمّى بسلاحه تغطّى بها . ابو عبيد: الباسل الشجاع ، وقد بَسُل بَسالة . ابن السكيت : تبسل في وجهه كَرّه منظره ، وإنما قيل للأسدِ باسلٌ لكراهية وجهه وقبحه . قال أبو علي : قال ابوزيد: الباسل الشجاع ، كأنه بَسُلَ على قرنه أي حرم ، والبسل الحَرام والجمع بُسلاء و بُسْل . صاحب العين : أبسل نفسه للموت واستبسل : وطّن . أبوزيد : بَؤُس الرجل بأساً – شجع. صاحب العين : رجل بئيس – شجاع، وقد بؤُسَ بآسة ،.. الخ.. »

هذه النصوص تظهرنا على مزايا طريقة ابن سيده في معجمه . فالمؤلف كما نرى يبذل جهده في تحديد مفهوم كل لفظة **وتخصيصها** بمعناها ، ولعلّ لفظ **المخصص** ، وهو العنوان الذي اختاره المؤلف لكتابه ، إنما أملته هذه الرغبة .

ومن مزايا هذا الكتاب حرص المؤلف على ذكر مصادره في كل خطوة يخطوها . نعم ، إنه لا يذكر أسماء الكتب التي يصدر عنها ، بل يجتزىء عادة بذكر المؤلفين . وماذاك إلاّ لأن هؤلاء الأئمة الذين يأخذ عنهم ويستقي من آثارهم كانوا في نظره ، هم ومؤلفاتهم، فوق كل تعريف .

ومما يجلب الانتباه أيضاً مايظهره المؤلف من ورع علمي في الجمع والنقل ، فكثيراً ماتراه في حال اختلاف من ينقل عنهم – كاختلافهم مثلاً في تحديد معنى لفظة أو صيغة من صيغها – يذكر الروايات المتضاربة كلّها

ويضعها أمام القارىء دون أن يقطع بإحداها . وهذه مزية كبرى لها قيمتها في مثل هذا النوع من التصانيف القائمة على الجمع والتنسيق .

ومن مزايا الكتاب أخيراً كثرة مافيه من الشواهد المختارة من الشعر القديم خاصة ؛ مما يؤكد معنى الألفاظ في نفس المراجع من جهة، ويطلعه على طريقة استعمالها من جهة ثانية .

هذه المزايا التي عددناها هي أشبه ما يكون بمزايا معاجم الألفاظ الكبرى التي جعلناها موضوع حديثنا في الفصل الأول من هذا الكتاب، مثل **القاموس** ، **واللسان** ، **والتاج** . ولاشك أن **المخصص** يشغل بين معاجم المعاني مثل المكانة التي تشغلها هذه الكتب بين معاجم الالفاظ.

بقي علينا ان نقول كلمة في طريقة مراجعة هذه الكتب والاستفادة منها .

يجب على المراجع والباحث في كتب المعاني التي ذكرناها أن يعتمد مبدئياً على فهارسها ؛ إذ أن لكل كتاب من هذه الكتب فهرساً تعدّد فيه أبوابه وفصوله ، حتى اذا عثر الباحث على الموضوع الذي يهمّه سهل عليه أن يصل إلى اللفظ أو التعبير المراد . فإذا أراد أحدنا البحث عن اسم جزء من أجزاء الجسم الانساني كان في وسعه أن يرجع إلى كتاب **خلق الانسان** ، واذا رغب في العثور على الألفاظ المستعملة في التعبير عن خلق من الأخلاق الحميدة او الذميمة فإنه واجد مبتغاه في أحد فصول كتاب **الغرائز** . وهكذا دواليك .

ولكن مراجعة هذه الفهارس المطوّلة ليست دائماً بالأمر السهل لأنها تستغرق وقتاً غير قليل ، ولذا حاول ناشرو بعض كتب المعاني ان يضعوا لها فهارس أو مفاتيح أبجدية تهدي الباحث إلى مواطن اللفظ الذي يختاره من أقصر السبل . فإذا أراد أحدنا البحث عن الالفاظ والتعابير المستعملة في الشيب ونعوته بحث في المفتاح الابجدي للكتاب عن **الشيب** في حرف **الشين** ، فيردّه هذا المفتاح إلى الجزء والصفحة اللذين ذكرت فيهما ألفاظ الشيب من الكتاب. وفي حرف **الضاد** ومادة **ضحك** نبحث عن موطن الألفاظ التي تتصل بالضحك والابتسام . وفي حرف **الباء** ومادة **بكى** نبحث عن الألفاظ التي تتصل بالبكاء والنحيب والدموع ... الخ .

وكتاب **المخصص** هو من معاجم المعاني المزوّدة بمثل هذا الفهرس الأبجدي . وكذلك الأمر في الطبعات البيروتية التي كنا أشرنا إليها من كتب ابن السكيت والهمذاني والثعالبي [1] .

---

(١) مما يجدر ذكره أيضاً هنا أن كتاب (المخصص) قد أخرجت منه طبعة مهذبة مختصرة حسنة التبويب ، مخففة من الاسانيد والروايات والشواهد ، بعنوان (الافصاح في فقه اللغة) وذلك بعناية الاستاذين عبد الفتاح الصعيدي وحسين يوسف موسى ، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٢٩٩م . وهو كتاب لطيف يمكن الاعتماد عليه ولاسيما أن الطبعة الكاملة ليست في متناول الايدي دائماً .

الباب الثاني

التأليف في الأدب

تمهيد

الأدب بحر واسع ، والتأليف فيه مختلف النواحي متنوع الألوان ، ولا سيما إذا خُرج به عن المعنى الفني الضيّق الذي له في أذهاننا وهو **التعبير الجميل نثراً وشعراً** ، إلى المعنى الثقافي الواسع الذي كان له في أذهان القدماء ، وهو **الأخذ من كل علم بطرف** . فكلّ ما في مكتبتنا العربية من شعر ورسائل وخطب وتاريخ وفلسفة وتراجم ودراسات اجتماعية ورحلات جغرافية ونقد وقصص — وما اكثر ما فيها من كل ذلك ! — هو ، تبعاً لهذا المعنى الثقافيّ الواسع للادب ، من صميم الأدب العربي .

ومن الطبيعي بعد ذلك أن يضيق هذا الكتاب المحدود في غايته ومرماه عن استعراض حركة التأليف في هذه الميادين الثقافية الأدبية كلها . ولا بدّ لنا في هذا الباب ، شأننا في الباب السابق ، ان نختار من تيارات التأليف الأدبي ما نعتقد أنه أهمّ من غيره ، وأن حاجة الطالب والباحث والمراجع تشتدّ إليه أكثر من سواه .

وفي ضوء هذه الحاجة رأينا الاقتصار في هذا الكتاب على بحث الأنواع الثلاثة التالية من أنواع التأليف الأدبي ، وهي :

آ — مجموعات الشعر العربي القديم .

ب— كتب الثقافة الادبية العامة .

حـ — كتب تراجم الأدباء على اختلاف أصنافهم، من شعراء ولغويين ونحاة وكتاب ومترسّلين ومصنفين وسواهم .

وغنيّ عن البيان ما لهذه الأنواع الثلاثة من شأنٍ بين المراجع والصادر التي تشتد الحاجة إليها .

وجرياً على عادتنا في هذا الكتاب سنتناول بالحديث كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة ، مبيّنين تطوّره التاريخيّ وملمّين على أهم الكتب المصنّفة فيه .

❀ ❀ ❀

الفصل الاول

مجموعات الشعر العربي القديم

رواية الشعر في الجاهلية وصدر الاسلام

دراسة الشعر العربي القديم تهمّ الأدباء والنقاد من الناحية الفنية ؛ وتهم اللغويين لبيان خصائص اللغة العربية وتطورها من عصر إلى آخر ؛ وتهم علماء الدين الذين يستعينون بمفردات هذا الشعر وشواهده على توضيح معاني كثير من ألفاظ القرآن والحديث ؛ وهي تهم أخيراً مختلف المختصين في العلوم الاجتماعية لما في هذا الشعر الذي كان يُنعت بحق بأنه (ديوان العرب) — أي مستقر معارفهم ومستودع علومهم — من دلالات كثيرة على تاريخ العرب السياسي وعلى حياتهم الاجتماعية والدينية والفكرية .

والمعروف أن الشعر العربي في قديم عصوره كان في الغالب الأعم يُتناقل شفاها ، وأن الشاعر الناشئ كثيراً ما كان يتتلمذ على شاعر آخر أرسخ منه قدماً في الشعر ، فيختص به ، ويصبح راويته الموكل بحفظ شعره وإذاعته . وقد روى المؤرخون أن الحطيئة ، الشاعر الهجّاء المخضرم

المعروف، كان راوية الشاعر الجاهلي الحكيم زهير بن ابي سلمى وابنه كعب، وأن زهيراً هذا كان في عصره راوية زوج أمه الشاعر الجاهلي التميمي الكبير أوس بن حجر . ويروي المؤرخون أيضاً أن كثيّر بن عبدالرحمن الخزاعي، الشاعر العذري الإسلامي المشهور بكثير عزّة، كان راوية لجميل بن عبد الله بن معمر العذري المعروف بجميل بثينة ، وأن جميلاً هذا كان راوية لشاعر عذري تقدمه اسمه هدبة بن خشرم (١) كان هو ايضاً بدوره راوية للحطيئة . وليس في مثل هذا النوع من الرواية التي تختص بشاعر بعينه ما يستغرب ، بل هي على العكس طريقة في الرواية معقولة وباعثة على الطمأنينة والثقة ، لأنها قائمة على أساس من المحبة والاعجاب . ونحن الآن إذا أحب أحدنا شاعراً أو أولع بكاتب نراه يدرس آثاره بشغف ويبذل جهده في حفظها والمحافظة عليها. وكذلك كان يفعل الشاعر الناشئ قديماً إذا أغرم بشعر أحد معاصريه .

وإلى جانب هذه الرواية المخصصة ، وجد في الجاهلية وصدر الإسلام رواة كثيرون لم يكونوا يقصرون عنايتهم على شاعر واحد، بل يروون جيد الشعر العربي مهما اختلف قائلوه . وقد ذكر المؤرخون عدداً من هؤلاء

---

(١) هدبة بن خشرم شاعر حجازي من بني عامر بن ثعلبة ، قتل قودا في المدينة نحو سنة ٥٤ هـ ، أخباره في (الاغاني) : ج - ٢١، ص - ١٦٩ .

المشاهير كمخرمة بن نوفل (١) وعقيل بن أبي طالب (٢) وعبد الله ابن عباس (٣).

نشاط الرواية في عصر المدونين :

لبث الشعر العربي خلال الفتوح الكبرى وطوال القرن الهجري الأول تتناقله الرواة من جيل الى جيل ، وظهر خلال هذا القرن عدد كبير من الشعراء الاسلاميين زادوا الثروة الشعرية العربية غنىً على غنى، وأسمعوا الناس في الدين والسياسة والحبّ نغمات جديدة لم يعرفها أهل الجاهلية البتة ، أو عرفوها ولكن على صورة أقلّ وضوحاً وقوة . ثم جاء القرن الثاني ، وهو عصر توقف الفتوح ، وعصر الاستقرار والانشاء الحضاري . فانصرفت القوى المبدعة المنظمة الى الجهاد في ميدان جديد هو ميدان الفكر ؛ وأخذت تستفرغ مجهودها كي تجمع الآثار المفرّقة،

---

(١) أبو صفوان مخرمة بن نوفل القرشي ؛ صحابي عالم بالانساب راوية للشعر كف بصره في ايام عثمان وتوفي معمرا في زمن معاوية .

(٢) هو شقيق الخليفة الراشد على بن ابي طالب ، كان عالماً بأنساب قريش واخبارها راوية للشعر . فارق اخاه ولحق بمعاوية نحو سنة ٦٠ هـ .

(٣) هو ابن عم الرسول (ص) . كان يلقب بحبر الامة أي عالمها . كان قوي الحافظة واسع الثقافة جدا ، فكان متضلعا في الفقه والتفسير والانساب والشعر وأيام العرب ؛ وكان كثيرا مايوزع أيامه على هذه الاختصاصات المختلفة ، فيجعلها يوماً للفقه، ويوما للتأويل، ويوما للمغازي، ويوما للشعر، ويوما لوقائع العرب. توفي سنة ٦٨ هـ .

وتبحث عن التراث الضائع ، وتنظم وتبوّب وتدّون في كل فن وعلم ؛ فلم يبلغ القرن الثاني غايته حتى كان التدوين قد بلغ أشدّه .

ومن الطبيعي بعد ذلك أن نرى فريقاً من العلماء في هـذا القرن ، وفي القرن التالي ، يخصون تراث العرب الشعري ، ولا سيما الجاهلي منه ، بعنايتهم ؛ فيجمعون ماتفرّق منه ، ويحاولون إنقاذ ماتبقى منه في الصدور بعد أن أتى ضرام الفتوح على قسم جليل منه [١] . فالشعر العربي ـ علاوة على قيمته الفنية ـ كان كما قلنا مادة لاغنى عنها لكثير من العلوم .

وقد ظهر خلال القرن الهجريّ الثاني ، وفي القرن الذي تلاه ، عدد كبير من رواة الشعر . ومعظم هؤلاء الرواة كانوا في الوقت ذاته من رواة اللغة وعلمائها الأعلام ، ولاغرابة في ذلك لأن جمع اللغة وجمع الأدب كانا يجريان جنباً إلى جنب على اعتبار ان كلاً منهما متمم للآخر .

---

(١) روى ابن سلام الجمحي في مقدمة كتابه (طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين) ان أبا عمرو بن العلاء كان يقول : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الاّ أقلّه . ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير . » وقال ابن سلام أيضاً : « قال عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه . فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو بلاد فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالامصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا (أي لم يرجعوا) الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم اكثره » .

من اشهر هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء[١]، وهو أستاذ الرواية غير منازع، والمفضل الضبي [٢] وخلف الاحمر [٣] وحماد الراوية [٤] والاصمعي [٥] وابوزيد الانصاري [٦] وابن سلام الجمحي [٧] وابو سعيد

---

(١) هو من أئمة اللغة والادب والرواية الموثوقة، وأحد القراء المشاهير. يصفه ابوعبيدة بأنه كان اعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر. وكانت غامة اخباره عن أعراب ادركوا الجاهلية. ولد ابو عمرو بن العلاء في مكة وعاش في البصرة وتوفي في الكوفة نحو سنة ١٥٤ هـ. وكان استاذ جيل من العلماء والرواة امثال الاصمعي وابي زيد ويونس والرؤاسي والاخفش وعيسى بن عمر. يقال انه احرق كل كتبه في اواخر حياته ورعا وتقى وانصرف الى دراسة القرآن وحده.

(٢) هو أبو العباس المفضل بن محمد الضبي، صاحب (المفضليات)، من أشهر رواة الكوفة وأوثقهم، توفي نحو سنة ١٦٨ هـ. ويرجح الاستاذان احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، محققا الطبعة الاخيرة من المفضليات، انه توفي سنة ١٧٨ هـ.

(٣) هو ابو محرز خلف بن حيان الأحمر البصري. راوية مشهور حمل عليه الشيء الكثير في روايته. توفي سنة ١٨٠ هـ.

(٤) هو حماد بن ميسرة المبارك الديلمي الكوفي، اشتهر بالرواية كثيراً حتى لقب بالراوية. وقد طعن عليه في روايته كثيراً. انظر القصة التي رواها ياقوت في ترجمة المفضل الضبي، وكيف ابطل الخليفة المهدي رواية حماد لزيادته في اشعار الناس وصحح في الوقت نفسه رواية المفضل، توفي حماد سنة ١٥٥ هـ.

(٥) سبقت ترجمة الاصمعي في ص (١٥) حاشية (٢)

(٦) سبقت ترجمة ابي زيد الانصاري في ص (١٢)، حاشية (١)

(٧) هو محمد بن سلام بن عبد الله الجمحي، العالم الراوية الناقد الاخباري المعروف، صاحب كتاب (طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين)، توفي سنة ٢٣٢ هـ.

السكّري [١] وابو عمرو الشيباني [٢] ومحمد بن حبيب [٣] وعلي بن عبد الله الطوسي [٤] وابن السكّيت [٥] وثعلب الكوفي [٦] وغيرهم .

نعم إنه لمن المؤسف حقاً أن تكون قد خالطت هذه الحركة النزيهة

---

(١) هو ابو سعيد ، الحسن بن الحسين السكري ، أشهر رواة الشعر وصناع الدواوين في عصره واخصبهم تأليفاً . توفي في البصرة نحو سنة ٢٧٥ هـ . اخباره في (الفهرست) و (معجم الادباء) .

(٢) هو ابو عمرو اسحق بن مرار الشيباني ، أحد أئمة الرواية واللغة في عصره ، كان استاذاً لثعلب الكوفي وابن السكيت وغيرهما . الف عدة رسائل لغوية كما جمع عدداً من دواوين الشعراء ؛ توفي نحو سنة ٢١٣ هـ ؛ أخباره في (الفهرست) و(معجم الادباء) .

(٣) محمد بن حبيب نسابة ولغوي وراوية معروف ، قرأ على ابن الاعرابي وابي عبيدة . كان من موالي بني العباس ، و (حبيب) اسم أمه ، جميع دواوين عدد من الشعراء ذكرهم (الفهرست) و (معجم الادباء) ، توفي نحو سنة ٢٤٥ هـ .

(٤) ابو الحسن علي بن عبد الله الطوسي . أحد أئمة الكوفة في الرواية واللغة والنحو ، يلقبه صاحب (الفهرست) براوية القبائل واشعار الفحول . صنع عدداً من الدواوين، توفي حوالي منتصف القرن الهجري الثالث .

(٥) سبقت ترجمة ابن السكيت في ص ٤٥ ، حاشية (٤) .

(٦) ثعلب لقب ابي العباس احمد بن يحيى الشيباني امام الكوفة في اللغة والنحو في عصره ، توفي ثعلب في بغداد سنة ٢٩١ هـ . من اشهر تصانيفه في اللغة والادب (الفصيح) و (مجالس ثعلب) وكلاهما مطبوع . يقول ابن النديم في(الفهرست): « عمل ابو العباس قطعة من اشعار الفحول وغيرهم ، منها الاعشى والنابغتان وطفيل والطرماح وغير ذلك .. »

النشيطة بعض النوازع المذهبية والعنصرية والسياسية والقبلية والشخصية، تلك النوازع المريضة التي استطاعت أن تستثمر ما كان يظهره العصر من حرص شديد على جمع ماتبقى من الشعر القديم فأدخلت على هذا الشعر العربي ماليس منه، مما حمل بعض مؤرخي الأدب على الشكّ في صحة ما روي من الشعر القديم.

ولكن يجب ألا ننسى أن اختلاط الزيف بالصحيح أحياناً لايكفي لنكران الصحيح ذاته، وأن من عادة الزيف الدخيل أن يكون أقلّ من الصحيح الأصيل. ويجب ألا ننسى أيضاً أنه إن وجد بين الرواة عدد قليل ممن أعمتهم غاياتهم ومنافعهم عن الأمانة العلمية، فقد وجد إلى جانبهم عدد كبير من الثقات أصحاب الضمائر النقية. وقد تنبّه هؤلاء منذ ذلك الحين على تلاعب المزيفين، فبذلوا وسعهم في التنبيه على زيفهم والحد من خطرهم.

ومهما يكن من الأمر فإنه لايسع الباحث المنصف إلا أن يقرّ بفضل هؤلاء العلماء والرواة الذين حفظوا لنا ما أمكنهم حفظه من الشعر العربي القديم. ولولا جهودهم لأسدل ستار كثيف دون ماضينا الادبي البعيد، ولَلقِيت العلوم اللغوية والاسلامية من جرّاء ذلك عنتاً كبيراً.

جمع الدواوين وتصنيف المختارات:

ولم يقتصر الرواة في هذا القرن على الرواية الشفهية شأن الرواة

القدماء ، بل عكف كثيرون منهم على التصنيف الجدي ؛ فصنعوا الدواوين ، وجمعوا أشعار القبائل ، وصنعوا المجموعات الشعرية وكتب المختارات المتنوعة ، مما ترك للباحثين بعدهم ذخيرة كبيرة من الوثائق يتعرفون من خلالها إلى ملامح الشعر العربي في أبعد عصوره ومراحل تطوّره .

ولو رجعنا إلى كتب التراجم نسألها عما جمع هؤلاء الرواة من دواوين القدماء لما وسعنا إلاّ أن نعجب بالجهود العظيمة التي بذلوها في هذا السبيل. فهذا أبو عمرو الشيباني يجمع مثلاً دواوين امرىء القيس ، ولبيد بن ربيعة ، وتميم بن مقبل ، ودريد بن الصمة ، والأعشى ، والحطيئة ، وسواهم . وهذا الاصمعي يرتب دواوين النابغتين الذبياني والجعدي ، وامرىء القيس ، ومهلهل ، وبشر بن أبي خازم وكثيرٍ غيرهم . وهذا محمد بن حبيب يجمع اشعار ذي الرمة ، والفرزدق ، وجران العود ، والصمة القشيري . وهذا أبو الحسن الطوسي يجمع دواوين زهير ، ولبيد ، والاعشى ، وحميد بن ثور ، والطرمّاح ، والعباس بن مرادس . وهذا أبو سعيد السكّري يجمع دواوين اكثر من خمسين شاعراً يذكر اسماءَهم ابن النديم في *الفهرست* . وكذلك باقي الرواة ، فلكل منهم عدد من دواوين القدماء عني بروايتها وجمعها ، حتى قلّ أن نسمع بشاعر لم يُجمع إذ ذاك ديوانه ، اللهم إلاّ ان يكون الشاعر مُقلاً او من المغمورين .

وإلى جانب هذه الدواوين الكثيرة التي وصلنا بعضها وفقد الكثير منها ، صنّف بعض الرواة والعلماء مجموعات شعرية بنوها على الاختيار

والاصطفاء، لا على الاستيعاب والشمول، كما هو الأمر في جمع الدواوين.

هذه المجموعات الشعرية يختلف بعضها عن بعض من حيث الفكرة الموجّهة. فبعض هذه المجموعات يرمي إلى إثبات عددٍ كثير أو قليل من القصائد المطولة الشهيرة بتمامها، وبعضها الآخر يكتفي، على العكس، بالابيات الجميلة ينتقيها من كل قصيدة. ومن هذه المجموعات ماهو مبوب على المعاني الشعرية المعروفة، ومنها ما يجمع المختارات جنباً الى جنب مهما اختلفت موضوعاتها. ومن هذه المجموعات أخيراً مالا يضم بين دفتيه إلا الشعر الجاهلي فلا يتعداه، ولو إلى شعر صدر الاسلام، إلا نادراً، ومنها ما ينتقي الشعر الجيد من الجاهلية وصدر الاسلام على حدّ سواء.

وفائدة هذه المجموعات الشعرية تختلف عن فائدة الدواوين. فالديوان ضيق الافق، اختصاصي الموضوع، يفيدنا اكثر ما يفيدنا في دراسة شاعر بذاته. أما هذه المجموعات فهي أوسع أفقاً، لتنوع موضوعاتها وتعدّد شعرائها. فتصويرها للحياة الفنية والاجتماعية اكمل؛ هذا إلى أنها تدل على ذوق العصر الذي تصنف فيه، كما تدل على ذوق مصنفها بوجه خاص.

أشهر المجموعات الشعرية المصنفة في القرنين الثاني والثالث

المفضليات — لعلّ اقدم مجموعة شعرية وصلتنا مما صنّف في القرن الهجري الثاني كتاب **المفضليات** [1] لمصنفه المُفَضّل بن محمد بن يعلى الضبي،

(١) طبعت (المفضليات) طبعة اخيرة جيدة ظهرت في مصر عام ١٣٦٢ هـ.=

الراوية الكوفي المشهور المتوفى سنة ١٦٨ هـ[١]. والذي كان من أعلام عصره في العربية والشعر والاخبار.

ذكر ابن النديم في الفهرست ان المفضل « خرج مع ابراهيم بن عبد الله بن حسن فظفر به المنصور، فعفا عنه والزمه المهدي. وللمهدي عمل الاشعار المختارة المسماة بالمفضليات، وهي مائة وثمانية وعشرون قصيدة. وقد تزيد وتنقص، وتتقدم القصائد وتتأخر، بحسب الرواية عنه. والصحيحة التي رواها عنه ابن الاعرابي. » يستنتج من هذا الذي ذكره صاحب الفهرست ان **المفضليات** إنما صنعها المفضّل لتثقيف تلميذه محمد بن عبد الله المهدي ولي عهد المنصور.

ونحن نعلم أن خروج إبراهيم بن عبد الله على المنصور ومقتله كانا سنة ١٤٥ هـ، وان المهدي إذذاك كان في الثامنة عشرة من عمره تقريباً. ولم يتولّ المهديّ الخلافة إلاّ سنة ١٥٨ هـ بعد وفاة ابيه المنصور. فإذا صحّ ماقاله ابن النديم — وهو خبر يتواتر في كثير من كتب الأدب مع بعض الاختلاف — كان لنا أن نقول إن جمع **المفضليات** جرى بين سنتي ١٤٥ و ١٥٠ هـ على أبعد تقدير. ومثل هذه النتيجة تجعل من هذا الكتاب أقدم المختارات الشعرية التي وصلتنا.

=(١٩٤٣ م) في جزأين بتحقيق الاستاذين احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون. كما طبعت من قبل في بيروت عام ١٩٢٠ م مع شرح ابي محمد القاسم بن بشار الانباري عليها، بتحقيق المستشرق (ليال).

(١) أو سنة ١٧٨ هـ كما ذكرنا في ص ٨١، حاشية (٢).

أما قول ابن النديم: « وللمهدي عمل الأشعار المختارة المسماة بالمفضليات» فدليل على أن المفضل حينما صنّف كتابه سمّاه **الأشعار المختارة**، أو اسماً آخر قريباً من هذا. ولكن الأدباء فيما بعد أطلقوا على هذه المجموعة اسم **المفضليات** تمييزا لها من كتب المختارات الأخرى التي صنفت بعدها.

للمفضليات منزلة كبرى في الأدب العربي. فهي، إلى كونها أقدم مجموعة من نوعها في الشعر العربي، تمتاز بميزات كثيرة.

فمن ميزاتها أنها لا تضمّ من الاشعار إلا ما كان قديماً. فهي تحتوي على ١٣٠ قصيدة[١] لستة وستين شاعراً جلّهم عاشوا وماتوا في الجاهلية، وليس بينهم إلاّ عدد قليل من المخضرمين والاسلاميين الأولين.

ومن ميزاتها أيضا أن القصائد في هذه المجموعة قد أثبتت بتمامها، ولم يعمد المفضّل إلى الاختيار والتفضيل بين أبيات القصيدة الواحدة.

ومن أهم ما تمتاز به هذه المجموعة أن اسم مؤلفها كان أبداً موضع

---

(١) هذا عدد المفضليات في طبعتها الاخيرة بتحقيق الاستاذين احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون. وقد سبق ان اشرنا الى ما ذكره ابن النديم في الفهرست من ان المفضليات « مئة وثمانية وعشرون قصيدة، وقد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية عنه. » والحق أن هنالك اختلافاً في عدد المفضليات. ويرجح ان عدد هذه القصائد في اصل الكتاب لم يتجاوز الثمانين، وان الاصمعي وبعض اصحابه من الرواة هم الذين اضافوا الى الكتاب من اختيارهم قصائد اخرى على نسقها. [انظر في هذا الموضوع مقدمة الطبعة الاخيرة من المفضليات.]

الاحترام، فلم يطعن عليه أحد من معاصريه أو ممن جاء بعد في أمانته وصدقه ؛ على كثرة من طُعن عليه من رواة الشعر في ذلك العصر [١] . بل المعروف المشهور أن المفضّل كان من أوائل الذين تنبّهوا ونبّهوا على بعض محاولات الرواة الآثمة . [٢]

هذه الميزات كافية في توضيح أسباب تلك المنزلة الكبرى التي كانت **المفضليات**، وماتزال، تتمتع بها لدى العلماء والباحثين . ففي هذه المجموعة صورة للشعر العربيّ القديم، هي بلا ريب اقرب صُوَرِهِ التي نملكها إلى الصحة والكمال ؛ وما ذلك إلاّ لأنها جمعت في عهدٍ بعيد لم يكن الزّيف قد تطرّق فيه إلى تراثنا الشعري بشكل صريح . كما انّ شخصية المفضّل ،وماعرف عنه في علمه من استقامة وورع، ضمان على صحة هذه الصورة .

---

(١) وفي طليعة هؤلاء الرواة المطعون عليهم حماد الراوية الكوفي وخلف الاحمر . البصري . اقرأ في هذا الموضوع ما كتبه طه حسين في كتابه (في الادب الجاهلي) بعنوان (الرواة وانتحال الشعر) .

(٢) ذكر ياقوت في ترجمة المفضل ما يلي : « قال ابن الاعرابي : سمعت المفضل الضبي يقول : قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح ابداً .فقيل له فكيف ذلك ؟ أيخطيء في روايته او يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فان أهل العلم يردون من أخطأ الى الصواب . ولكنه رجل عالم بلغات العرب واشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب الرجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط اشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها الا عند عالم ناقد . واين ذلك ؟ » .

الأصمعيات. — ومن المجموعات الشعرية القديمة التي صنفت في القرن الثاني مجموعة تسمى **الأصمعيات** نسبة الى مصنفها عبد الملك بن قريب الأصمعي، الراوية اللغوي الاخباري المعروف، المتوفي نحو سنة ٢١٦ هـ. وقد عرف الاصمعي بسعة روايته للشعر حتى لقبه الرشيد **بشيطان الشعر**؛ وحتى قيل عنه، وقال عن نفسه، إنه كان يحفظ كذا وكذا ألفاً من الأراجيز بله القصائد؛ وهي أرقام، على مافيها من تهويل وإغراق لاشك فيهما، تدل على ماعرف به الأصمعي في عصره من اطلاع واسع على شعر العرب. وقد بلغ الاصمعي في عصره من الشهرة في رواية الأدب والأخبار وحسن تأتيه في الحديث ما لم يبلغه المفضل أو أحد سواه من الرواة، حتى أصبح — وشأنه في ذلك شأن أبي نواس مثلاً — شخصية أسطورية من تلك الشخصيات التي يعج بها عصر الرشيد؛ ذلك العصر الذي طبع شخصية (هارون الرشيد) نفسه بطابع اسطوري يلاقي المؤرخون كثيراً من العنت في تجريدها منه.

و**الاصمعيات** اسم اطلق على هذه المجموعة كما أطلق اسم **المفضليات** على مجموعة المفضل تمييزاً لكل من المجموعتين من الأخرى. ولاشك أنه، على رغم هذا التمييز، قد حدث كثير من التمازج والتداخل بين قصائد المجموعتين [١]. ومجموعة الأصمعي في الطبعة الوحيدة التي بين أيدينا

---

(١) انظر في هذا الموضوع مقدمة الطبعة الاخيرة من (المفضليات) بتحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون.

منها [١] تحتوي على سبع وسبعين قصيدة بينها عدد من المقطوعات القصيرة. وشعراء هذه المجموعة هم كشعراء **المفضليات** جلّهم من الجاهليين القدماء.

وتعتبر **الأصمعيات** في نظر الباحثين خير متمم لمجموعة المفضّل من حيث تصوير واقع الشعر العربي القديم، وان كانت **المفضليات** تفضلها لقدمها ولأن الاصمعيّ قد حمل عليه في روايته ما لم يُحمل مثله على المفضل [٢].

جمهرة اشعار العرب. — ومن المجموعات الشعرية القديمة كتاب **جمهرة أشعار العرب** المنسوب لراوية مغمور لانعرف عنه شيئاً ولانجد له ترجمة في كتب الادب هو أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي. وهذا الراوية يروي أكثر أخباره في مقدمة كتابه عن شيخ له اسمه ابو عبد الله المفضل بن عبد الله المحبّري. وهو على مايظهر من سلالة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب؛ إذ ان اسمه يرد احياناً في مقدمة الجمهرة كما يلي:

---

(١) وهي الطبعة التي ظهرت في مدينة (ليبزيغ) عام ١٩٠٢ بتحقيق المستشرق الألماني و. أهلورد، أو كما يسمي نفسه (وليم بن الورد). والاصمعيات في هذه الطبعة تؤلف الجزء الاول من (مجموع اشعار العرب) الذي جمعه واشرف على طبعه وتحقيقه المستشرق المشار اليه.

(٢) اقرأ ما كتبه المرحوم احمد أمين في هذا الموضوع في الجزء الثاني من (ضحى الاسلام) ص ٣٠٠ — ٣٠١.

المفضل بن عبد الله بن المحبّر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وفي بعض مواضع المقدّمة يعمد المؤلف إلى الاختصار فيقول : (اخبرنا المفضّل) ولا يزيد على ذلك شيئاً . ومما يؤسف له ان (المفضل) قد سمي في موضع واحد من مقدمة الكتاب او في موضعين على الاكثر (المفضل بن محمد الضبي) ؛ وهذا بلاريب خطأ من النساخ المتأخرين الذين خلطوا بين المفضل الضبي المشهور صاحب **المفضليات** ، وبين المفضل المحبّري سليل عمر بن الخطاب . ولعل هذا الخطأ هو الذي دفع مثلاً العلامة المرحوم احمد امين في كتابه **ضحى الاسلام** الى الظن بأن مؤلف الكتاب ، ابا زيد القرشي ، ربما كان من تلاميذ المفضل الضبي [١] . ومثل هذا الظن لا مسوغ له لاننا لو رجعنا الى اسانيد المؤلف في مقدمة كتابه لاستنتجنا منها ان ابا زيد القرشي وأستاذه المفضل المحبري كانا في عصر متأخر عن عصر المفضل الضبي بما لا يقل عن نصف قرن [٢] .

---

(١) : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٢) : فيما يلي بعض هذه الاسانيد الواردة في مقدمة (جمهرة أشعار العرب) :

أ — اخبرنا المفضل قال : أخبرني ابي عن جدي عن محمد بن اسحق عن ... (ومحمد بن اسحق هذا توفي نحو سنة ١٥٠ هـ .)

ب — حدثني المفضل عن ابيه عن الاصمعي عن ... (والاصمعي توفي نحو سنة ٢١٦ هـ .)

ج — حدثني سنيد بن محمد الازدي عن ابن الاعرابي عن ... (وقد توفي ابن الاعرابي نحو سنة ٢٣١ هـ) . ومن الواضح الجلي في مثل هذه الاسانيد أن مؤلف (الجمهرة) لا يمكن ان يكون تلميذاً للمفضل الضبي ، وان المفضل الذي ورد اسمه في —

هذه المجموعة الشعرية الشهيرة تحتوي على تسع وأربعين قصيدة مطوّلة من عيون شعر الجاهلية وصدر الإسلام . وقد وزّعها المؤلف في سبع فئات متكافئة ، كل فئة منها تضمّ سبع قصائد وتحمل اسماً خاصاً. وهذه هي أسماء الفئات السبع: **المعلقات - الجمهرات - المنتقيات - المذهبات - المراثي - المشوبات - الملحمات** . ومن الممكن أن نجد لبعض هذه الأسماء تفسيراً مقنعاً ، كالمعلقات والمراثي والمشوبات [١] . أما الأسماء الأخرى فمجرّد مصطلحات تصلح لتمييز بعض هذه القصائد من بعض . ويظهر أن هذه الألقاب كانت معروفة قبل ظهور هذه المجموعة إلى حيّز الوجود ، وأن أبا زيد القرشي أخذها عن أساتذته ولم يأت بها من عند نفسه . وهذا مايفهم من قوله في المقدمة نقلاً عن شيخه المفضّل، بعد أن تحدث عن أصحاب السموط السبعة أو المعلقات السبع : « وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون إن بعدهنّ سبعاً ما هنّ بدونهنّ ،ولقد تلا أصحابهنّ أصحاب الأوائل فما قصروا ؛ وهنّ **الجمهرات** .... وأما منتقيات العرب فهنّ للمسيّب بن عَلَس والمرقّش ..... الخ »

ـ في الاسنادين (أ) و (ب) غير المفضل الضبي المشهور ، وان مؤلف الجمهرة قد عاش في اواسط القرن الهجري الثالث على أقل تقدير .

(١) المشوبات هنا أي القصائد التي شابها الشرك والاسلام ، وهي سبع قصائد اختارها مؤلف (الجمهرة) لسبعة من المخضرمين هم النابغة الجعدي وكعب بن زهير والقطامي والحطيئة والشماخ وعمرو بن احمر الباهلي وتميم بن مقبل العامري .

ومما يلفت النظر في هذه المجموعة القيمة ما فيها من تناظر مصطنع في التقسيم . فالمجموعة كما قلنا تضم سبع زمر في كل منها سبع قصائد . ومثل هذا التأنق في التقسيم، بالاضافة إلى الأسانيد التي أوردها المصنف في مقدمته ، يحمل على الاعتقاد بأن الكتاب من ثمرات القرن الهجري الثالث الذي شهد في مطلعه نموذجاً آخر من هـذا التناظر في **طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين** لابن سلاّم الجمحي .

والمجموعة بعد خير متمم في نظر العلماء لمجموعتي المفضل والأصمعي اللتين سبقت الإشارة إليهما . فهي مثلهما تضم نماذج جيّدة وكاملة من شعر الجاهلية وصدر الاسلام ، كما أن فيها عدداً من القصائد الشهيرة التي لا يعثر عليها في الدواوين والمجموعات التي صنفت قبلها .

ديوان الهذليين . — ولا يفوتنا أخيراً أن نشير إلى مجموعة شعرية أخرى تختلف عن المجموعات السابقة بأنها قاصرة على شعراء قبيلة عربيـة بعينها . ونعني بها مجموعة أشعار بني هذيل المسماة **ديوان الهذليين** .

وقد عُني عدد من العلماء والرواة بجمع أشعار كثير من القبائل العربية ، كلٍّ منها على حدة في كتاب خاص . من أشهر هؤلاء الرواة ابو عمرو الشيباني [١] ؛ فقد ذكر ابن النديم في الفهرست أن أبا عمرو

---

(١) سبقت ترجمة ابي عمرو الشيباني في ص(٨٢)، حاشية (٢) .

هذا جمع شعر ما يزيد على ثمانين قبيلة [١] . ومن مشهوري الرواة الذين اتجهوا هذا الاتجاه في جمعهم للشعر العربي أبو سعيد السكري الذي جمع أشعار خمس وعشرين قبيلة عدّد ابن النديم أيضاً أسماءها في كتابه الفهرست [٢] . ولاريب في أن جمع الشعر العربيّ على هذا النحو هو اتجاه في الرواية مفيد جدّاً، لأنه يطلعنا على ما لكل قبيلة من خصائص فكرية ولغوية وفنية تتصف بها .

ولم يصلنا مع الأسف من كل هذه المجموعات الكثيرة سوى **ديوان الهذليين** الذي يضم أشعار ما يقرب من ثلاثين شاعراً من بني هذيل . وقد عني بلمّ شعث هذا الشعر وترتيبه وشرحه أبو سعيد السكري [٣] بعد أن سبقه إلى التقاطه وجمعه عدد من كبار الرواة أمثال الأصمعي وابن الاعرابي وأبي عمرو الشيباني وغيرهم.

وهذيل قبيلة عربية مضرية شديدة القرابة من قريش ، وتنحدر مثلها من مدركة بن الياس بن مضر بن نزار . وكانت هذيل تسكن قريباً من مكة والطائف . واشتهرت هذه القبيلة بكثرة شعرائها حتى

---

(١) انظر (الفهرست) ، ص ١٠١ . وفي ياقوت (ج ٦ ص ٧٩) أن عمرو بن أبي عمرو الشيباني قال : لما جمع ابي أشعار القبائل كانت نيفاً وثمانين قبيلة ، فكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها للناس كتب مصحفاً بخطه وجعله في مسجد الكوفة حتى كتب نيفاً وثمانين مصحفاً .

(٢) انظر (الفهرست) ص ٢٢٦ و (معجم الأدباء) ج ـ ٨ ، ص ٩٨ـ٩٩

(٣) سبقت ترجمة السكري في ص (٨٢) ، حاشية (١) .

نقل عن الأصمعي أنه قال : « إذا فاتك الهذلي أن يكون شاعرا أو رامياً فلا خير فيه . » واشتهرت هذيل أيضاً بفصاحتها وسلامة لغتها من الشوائب ، إذ أنها كانت تعيش في وسط الجزيرة العربية بعيدة عن السواحل وجوار الأعاجم ، حتى عدّها العلماء إحدى قبائل العرب التي يحتجّ بكلامها في اللغة . ولعلّ إعراق هذه القبيلة في الشعر والفصاحة هو الذي دفع الرواة إلى العناية بجمع أشعارها وحفظها وشرحها .

ولو انّ أشعار القبائل العربية الأخرى حُفظت لنا كما حفظت أشعار هذيل ، لفُتحت أمام الباحثين في تاريخنا الأدبي طرق جديدة في البحث ربما أدت إلى الكشف عن الخصائص الفنية واللغوية لكل قبيلة .

الحماسات :

وهناك فئة ثانية من المجموعات الشعرية تختلف عن المجموعات التي سبقت الإشارة إليها في هذا الفصل بكونها لا تثبت القصائد المختارة تامّةً ، وإنما تعنى أكثر ما تعنى بالمقطوعات والأبيات القليلة تختارها من المطوّلات . وهي تختلف أيضاً عن تلك المجموعات بكونها مبوّبة حسب المعاني الشعرية المشهورة . ونسمي هذه الفئة من كتب المختارات الشعرية بالحماسات لغلبة هذا الاسم عليها ، وإن سمّي بعض هذه الكتب باسم آخر .

حماسة أبي تمام . — من أشهر مجموعات هذه الفئة كتاب **الحماسة**

للشاعر الكبير أبي تمام حبيب بن أوس الطائي المتوفي سنة ٢٣١ هـ .[١]

ذكر الخطيب التبريزي أحد شرّاح الحماسة أن أبا تمام قصد الأمير عبد الله بن طاهر بخراسان فمدحه ، وأنه في طريق عودته توقف في همذان عند صديقه أبي الوفاء بن سلمة الذي أنزله وأكرمه . وأصبح أبو تمام ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم قطع الطرق ومنع السابلة ، فغمّه ذلك. وأراد مضيفه أن يسرّي عنه فأحضره خزانة كتبه ليطالعها ويشتغل بها . فصنّف أثناء مقامه ذاك عدة كتب أحدها كتاب الحماسة . هذا خبر لاندري مبلغه من الصحة ؛ فتأليف عدة كتب أحدها الحماسة يقتضي من الوقت ما لا يتسع له انحباس صديق عند صديق بسبب انقطاع الطريق . فإذا صح الخبر لزمنا أن نشكر المصادفات التي دفعت أبا تمام إلى بيت صديقه في همذان ، وجعلت الثلج يحول بينه وبين المضيّ في طريقه ؛ فأتحفت الأجيال بكتاب هو بلا ريب أثمن ماتحويه الخزانة العربية من كتب المختارات القديمة .

---

(١) طبعت الحماسة لوحدها عدة مرات ، كما طبعت مع شرح التبريزي عليها للمرة الاولى مع ترجمة للغة اللاتينية ، في اوربا ، بعناية المستشرق الالماني فريتاغ ، منذ منتصف القرن التاسع عشر . ثم طبع شرح التبريزي في مطبعة بولاق في ٤ اجزاء سنة ١٢٩٦هـ . وقد اعيد طبع هذا الشرح اخيراً في مصر بعناية الاستاذ محيي الدين عبد الحميد . وطبعت الحماسة ايضاً مع شرح المرزوقي عليها بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥١ بتحقيق الاستاذ المرحوم احمد امين والاستاذ عبد السلام هارون .

ولعل اباتمام أجدر أدباء عصره بتصنيف مجموعة مختارة من الشعر القديم. فهو أحد الشعراء العباقرة وأمير شعراء طبقته بلا منازع . وهو في الوقت ذاته من اكثر شعراء العربية أصالة ، وأقومهم ذوقاً، واعرفهم بتراث العرب الشعري . ولذا جاء كتابه تحفة فنية رائعة، وكنزاً من الشعر باقياً على الدهر. فطارت شهرته قديماً وحديثاً وكثر الثناء عليه، حتى غلا بعض المعجبين به فقال : « أبو تمام في حماسته أشعر منه في شعره . »

صنف أبو تمام حماسته على عشرة أبواب هي : باب **الحماسة**، وباب **المراثي**، وباب **الأدب** (١)، وباب **النسيب**، وباب **الهجاء**، وباب **الاضياف والمديح** (٢)، وباب **الصفات** (٣)، وباب **السير والنعاس** (٤)، وباب **الملح**، وباب

---

(١) : كلمة (أدب) مستعملة هنا بمعناها الخلقي لا بمعناها الفني أو الثقافي . فكل مختارات هذا الباب من أبواب حماسة أبي تمام موضوعها الثناء على الاخلاق الفاضلة كـكتمان السر والصبر والحلم والمروءة .

(٢) : موضوع هذا الباب الفخر بكرم الضيافة من جهة والمدح من جهة ثانية. والموضوعان مختلفان . ولعل أبا تمام جمعهما في باب واحد لانه كان يرى ان الفخر نوع من انواع المدح يخص به الشاعر نفسه وقومه .

(٣) : باب (الصفات) هو أشد أبواب حماسة أبي تمام اختصاراً إذ لا يضم سوى مقطوعات ثلاث : الاولى في وصف الهاجرة ، والثانية في وصف أرقم ، والثالثة في وصف البرق والمطر .

(٤) : موضوع هذا الباب وصف السير والسرى والليل وما يعتري الراكب من نعاس بعد السير الطويل . وما أجدر هذا الباب أن يكون ملحقاً بباب الصفات لا باباً مستقلا بنفسه .

مذمة النساء. والباب الأول — أي باب **الحماسة** — هو أكبر أبواب الكتاب، وبه سُمّي الكتاب بكامله، كما سمّي قبله **كتاب العين** مثلاً باسم الباب الأول منه. وقد اثبت أبو تمام في هذا الباب ما اختاره من أقوال القدماء في الشجاعة والإقدام والحض على النزال وتحمل المكروه والاستهانة بالموت وإدراك الثأر وما الى ذلك من المعاني الحماسية.

وأبو تمام، على ما يظهر، كان أسبق المصنفين الى اتباع هذه الطريقة في تأليف المختارات: طريقة تنسيق المختارات بحسب الفنون الشعرية. فاتبعه المصنفون بعد ذلك وساروا على نهجه.. يدلّ على ذلك كثرة الحماسات التي الفت بعده: كحماسة صنوه ومعاصره الشاعر البحتري المتوفى سنة ٢٨٤ هـ، وحماسة الاخوين الأديبين الشاعرين محمد وسعيد الخالديين من رجال القرن الهجري الرابع، وحماسة أحمد بن فارس اللغوي المشهور وأحد رجال القرن الرابع أيضاً، وحماسة أبي السعادات هبة الله بن الشجري المتوفي سنة ٥٤٢ هـ، وحماسة أبي الحجاج يوسف بن محمد اليَسّاسي الأندلسي المتوفي سنة ٦٥٣ هـ، وغيرهم. وتعدّد الحماسات على هذا النحو دليل على شهرة حماسة أبي تمام وعلى ما لاقته لدى الأدباء من قبول ورعاية حتى اندفعوا يعارضونها ويحذون حذوها من جيل إلى جيل.

ومما يدلّ أيضاً على شهرة **حماسة ابي تمام** كثرة من تصدّى لشرحها من جلة العلماء والأدباء كأبي هلال العسكري، والحسن بن بشر الآمدي، وابي بكر محمد بن يحيى الصولي، وأبي الفتح عثمان بن جنّي في

القرن الهجري الرابع ؛ وكأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي ، وأبي زكريا يحيى بن علي المعروف بالخطيب التبريزي ، وأبي الفضل الميكالي ، والأعلم الشنتمري ، وأبي المحاسن مسعود بن علي البيهقي في القرن الخامس ، وكأبي البقاء عبد الله بن حسين العكبري في القرن السادس (١) . وقلّ أن تجد في المكتبة العربية كتاباً من كتب الأدب لقي من عناية الشرّاح والدارسين مالقيه هذا الكتاب .

أما شعراء الحماسة فليس بينهم من المحدثين إلاّ نفر قلائل كمسلم بن الوليد ودعبل وأبي العتاهية . والباقون ـ وهم الأغلبية العظمى ـ من قدامى الجاهليين والإسلاميين . كما أن في الحماسة أشعاراً كثيرة جميلة لعدد من الشعراء المغمورين أو المجهولين . وما أكثر ما تنطوي عليه الحماسة من روائع شعرية لانجدها في الدواوين التي بين أيدينا أو في المجموعات الشعرية التي ألفت قبلها . وهذا مما يرفع من قدر الحماسة في نظر العلماء الباحثين عن كنوز الشعر العربي القديم ؛ مع مالها من منزلة كبرى في نفوس الهواة المشغوفين بالشعر الجميل .

حماسة البحتري . — ومن أشهر الحماسات بعد حماسة الطائي الأول أبي تمام حماسة الشاعر الطائي الكبير الثاني أبي عبادة الوليد بن عبيد البحتري المتوفى سنة ٢٨٤ هـ (٢) . ويقال إن البحتري ألف هذا الكتاب

---

(١) كشف الظنون ، ج ١ ص ٦٩١ — ٦٩٢

(٢) طبعت حماسة البحتري طبعة جيدة مذيلة بالفهارس والتعليقات المفيدة بمطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٩١٠ . ثم أعيد طبعها في مطبعة المكتبة التجارية بمصر سنة ١٩٢٩ .

معارضاً به كتاب أبي تمام نزولاً عند رغبة أحد كبار ممدوحيه ، الفتح بن خاقان وزير الخليفة العباسي المتوكل على الله .

ويمتاز هذا الكتاب بما امتاز به سابقه من أنه صنع شاعر كبير مرهف الذوق ، يعرف كيف يميّز غثّ الشعر من سمينه . كما يمتاز أيضاً بأنه جمع بين دفتيه مختارات جميلة لأكثر من ستمئة شاعر جلّهم من الجاهلية وصدر الاسلام .

وإذا كان ثمة من فارق واضح بين الحماستين فانما هو في توزيع أبواب كل منهما . فأبو تمام صنف مختاراته كما رأينا في عشرة أبواب كبيرة . أما البحتري فقد صنف مختاراته في مئة وأربعة وسبعين باباً مقتضباً ؛ وذلك لأنه عني بالمعاني الجزئية أكثر مما عني بأغراض الشعر الرئيسية . فهو لا ينظر في تبويب كتابه إلى الحماسة والمديح والوصف والرثاء والهجاء وما إلى ذلك من الفنون الشعرية . وإنما يراعي الأفكار التفصيلية التي تعوّد الشعراء التعبير عنها في كل من هذه الأغراض . وقد سمى البحتري كتابه **حماسة** حباً بمعارضة أبي تمام ، ولكننا لا نجد في مجموعته باباً واحداً بهذا الاسم . ومع ذلك فالأبواب السبعة والعشرون الأولى من كتابه إنما تفصّل المعاني الحماسية التي أجملها أبو تمام في باب واحد [١] ؛ كما ان في

---

(١) : هذه اسماء الابواب العشرة الاولى منها نذكرها هنا على سبيل المثال : **الباب الاول** ـ فيما قيل في حمل النفس على المكروه . **الباب الثاني** ـ فيما قيل في الفتك . **الباب الثالث** ـ فيما قيل في الاصحار (أي البروز) للأعداء والمكاشفة لهم ـ

هذا الكتاب عشرين باباً كل منها يتضمن معنى من معاني الصداقة[١] ، وسبعة أبواب كل منها ينطوي على معنى من معاني الشيب[٢] .... وهكذا دواليك .

— وترك التستر منهم . **الباب الرابع** — فيما قيل في مجاملة الاعداء وترك كشفهم عما في قلوبهم . **الباب الخامس** . — فيما قيل في الاطراق حتى تمكن الفرصة . — **الباب السادس** — فيما قيل في بقاء الاحنة ونمو الحقد وان طال عليهما الزمان . **الباب السابع** . — فيما قيل في الانفة والامتناع من الضيم والخسف . **الباب الثامن** . — فيما قيل في ركوب الموت خشية العار . **الباب التاسع** . — فيما قيل في الاستسلام على الذل بعد الامتناع **الباب العاشر** . — فيما قيل في التحريض على القتل بالثأر وترك قبول الدية ... الخ.

(١) وهي الابواب ٢٨ — ٤٨ ؛ وهذه اسماء بعض الابواب منها على سبيل المثال: **الباب الثامن والعشرون** — فيما قيل في مؤاخاة الكرام وحمدها . **الباب التاسع والعشرون** — فيما قيل في ترك مؤاخاة اللئام وذمها . **الباب الثلاثون** — فيما قيل في ابتلاء الرجال قبل مؤاخاتهم . **الباب الحادي والثلاثون** — فيما قيل فيمن تتهم مودته ولا يوثق باخائه . **الباب الثاني والثلاثون** — فيما قيل في اخلاص الود لمن وددت وترك الرضى لهم بما لا ترضى به لنفسك ... الخ .

(٢) : وهي الابواب ١١٦ — ١٢٢ ؛ وهذه اسماؤها : **الباب السادس عشر والمئة** — فيما قيل في الشباب والشيب . **الباب السابع عشر والمئة** — فيما قيل في الاعتذار من الشيب . **الباب الثامن عشر والمئة** — فيما قيل في مدح الشيب . **الباب التاسع عشر والمئة** — فيما قيل في قبح الصبابة بذي الشيب . **الباب العشرون والمئة** — فيما قيل في مدح الشباب وذم الشيب . **الباب الحادي والعشرون والمئة** — فيما قيل في مدح الشيب وذم الشباب . **الباب الثاني والعشرون والمئة** — فيما قيل في الكبر والهرم .

وخلاصة القول انه اذا جاز لنا أن نقول إن **حماسة أبي تمام** هي كتاب في **فنون** الشعر ، كانت **حماسة البحتري** كتاباً في **معاني** الشعر . وقد توزّعت هاتان الطريقتان جهود مؤلفي المختارات الشعرية فيما بعد ، فمنهم من جرى على نهج ابي تمام ، ومنهم من فضل طريقة البحتري . ولكل من الطريقتين مزيّة ليست للاخرى . فطريقة البحتري أدق تبويباً وأشد إسعافاً للباحث عمّا قيل في معنىً من المعاني الشعرية الصغرى . ولكنّ عناية المؤلف بالتفاصيل حملته على تمزيق أوصال القصائد والاكتفاء بالمقطوعات القصيرة والأبيات المفردة يختارها من هنا وهناك . أما **حماسة ابي تمام** فمقطعاتها أقرب الى التمام وتصوير واقع شعرنا القديم ، لأن همّ المؤلف في الموضوع العام لا في المعنى الجزئي . ولكنّ الباحث عن الافكار الشعرية التفصيلية ، المتشوّق لمعرفة ماقيل في كل منها على حدة ، لا يستطيع أن ينقع غلته في هذا الكتاب بمثل السهولة التي يبلغ بها بغيته في مجموعة البحتري .

حماسة ابن الشجري ومختاراته . —

ومن أشهر الحماسات بعد كتابي أبي تمام والبحتري **حماسة ابن الشجري** أحد مشهوري أدباء بغداد في القرن الهجري الخامس [١] . وهذا الكتاب

---

(١) ابن الشجري هو الشريف أبو السعادات هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني . ينسب الى بيت الشجري من قبل امه . والشجري نسبة الى (شجرة) وهي —

يشبه أن يكون وسطاً بين تينك الحماستين ؛ فهو مؤلف من ستة عشر باباً أساسيّاً بينها عدد من أبواب حماسة ابي تمام ذاتها ، مثل أبواب **الحماسة والمراثي والهجاء والمديح والادب والنسيب والملح** . ولكنّ أحدَ أبواب هذا الكتاب ، وهو باب **صفات النساء والتشبيهات** ، قد قسم الى عدد من الفصول ينطوي كلٌّ منها على معنى جزئيّ من أبواب المعنى الأصلي .

والكتاب بعد ذلك شبيه بحماستي البحتري وأبي تمام من حيث كثرة عدد شعرائه وكونهم ينتمون إلى مختلف العصور الأدبية. غير أن نصيب هذ الكتاب من الشعر المحدث يفوق نصيب سابقَيْه . وليس أدلّ على ذلك من أن المؤلف ، مع استشهاده بكثير من الشعر المحدث في مختلف أبواب الكتاب ، يخص المحدثين بباب مستقلّ من أبواب كتابه عنوانه **مقطعات من غزل شعر جماعة من المحدثين** .

ولابن الشجري مجموعة اخرى من المختارات الشعرية تعرف **بمختارات ابن الشجري** او **ديوان مختارات شعر العرب** . والمؤلف في هذا الكتاب

— قرية من أعمال المدينة المنورة. وكان ابن الشجري نقيب الطالبيين في الكرخ . توفي سنة ٥٤٢ هـ وقد أناف على التسعين . طبعت (حماسته) عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧ م) بحيدر اباد الدكن في الهند بعناية المستشرق الالماني (كرنكو) . وطبعت (مختاراته) في مصر عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) بعناية محمود حسن زناتي . ولابن الشجري كتاب في الادب مشهور اسمه (الامالي) طبع في حيدر آباد الدكن في الهند سنة ١٣٤٩هـ في جزأين.

يُعنى بالشعر القديم وحده دون المحدث ،وبالقصائدالتامة دون المقطّعات ولذا جاء كتابه أشبه **بالمفضليات والاصمعيات** منه بالحماسة التي ذكرناها

وتضمّ **المختارات** مايقرب من خمسين قصيدة لأربعة عشر شاعراً كلهم من الجاهليين إلاّ مخضرماً واحداً هو الحطيئة . ولم تُصنّف هذه القصائد بحسب موضوعاتها أو معانيها كما هو الامر في حماسته والحماسات الأخرى ، وإنما رويت دون ترتيب على اعتبار أنها مجموعة من القصائد العربية القديمة الجميلة ليس غير ، كما هو الأمر في **المفضليات والاصمعيات** ومن الممكن جدّاً أن يكون ابن الشجري قد أراد بهذه **المختارات** معارضة المفضّل والأصمعي ، بينما أراد بالحماسة مجاراةابي تمام والبحتري .

❀ ❀ ❀

هذه أشهر مجموعات شعرنا العربيّ القديم ، عرضنا لذكرها في هذا الفصل المقتضب فبيّنا أنواعها ، وميزات كل نوعٍ منها ، وأشهر مجموعات هذا النوع مرتّبة ترتيباً زمنياً . وقد حرصنا كلّ الحرص على بيان الفروق الاساسيّة بين مجموعة وأخرى ، وبين نوع ونوع، كي تتيسر الافادة من هذه المجموعات كلّ بحسب اتجاهها ومضمونها ؛ لأن هذه المجموعات كما اشرنا إلى ذلك في بدء هذا الفصل هي — بعد الدواوين الشعرية — أهم مصادرنا في دراسة الشعر العربي في عصوره الغابرة .

الفصل الثاني

كتب الثقافة الأدبية العامة

يعقد ابن خلدون في **مقدمته** المشهورة فصلاً **في علوم اللسان العربي**، فيتكلم بالتتالي على علوم النحو واللغة والبيان، ثم ينهي فصله بالبحث في **علم الأدب** فيقول: (١)

«هذا العلم لا موضوع له يُنظر إليه في إثبات عوارضه أو نفيها. وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته؛ وهي الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم. فيجمعون لذلك من كلام العرب ماعساه تحصل به الملكة من شعرٍ عالي الطبقة، وسجعٍ متساوٍ في الإجادة، ومسائل في اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرّقة، يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية؛ مع ذكر بعضٍ من أيام العرب يفهم به مايقع في أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهمّ من الانساب الشهيرة والأخبار العامة. والمقصود بذلك كله ألا يخفى على الناظر

---

(١) انظر (المقدمة) ص ٥٥٣ — ٥٥٤.

فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفّحه ؛ لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلاّ بعد فهمه ؛ فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه . ثم إنهم إذا أرادوا حدّ هذا الفنّ قالوا : **الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ منها كل علم بطرف** ، يريدون : من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط ؛ وهي القرآن والحديث ؛ إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب ؛ إلاّ ماذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية ؛ فاحتاج صاحب هذا الفنّ حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهم . وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفنّ وأركانه أربعة دواوين وهي : **أدب الكتاب** (١)

---

(١) كتاب (ادب الكتاب) او (أدب الكاتب) لعبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، كتاب في اللغة لا في الادب . فهو بأبوابه الاولى يشبه معاجم المعاني التي تحدثنا عنها في الباب الاول من هذا الكتاب ، وبأبوابه الاخرى كتاب يبحث في بعض المسائل الاملائية والصرفية الهامة . فوصف ابن خلدون لكتب الادب لا ينطبق على هذا الكتاب . ولعل ابن خلدون انما ذكر هذا الكتاب بين دواوين الادب الاربعة لان هذه الكتب الاربعة في نظره يتمم بعضها بعضاً ؛ فاذا درسها طالب الأدب خرج منها جميعها بثقافة أدبية كاملة . وقد طبع كتاب (أدب الكاتب) عدة طبعات أشهرها الطبعة الاوربية بمدينة (ليدن) الهولاندية سنة ١٩٠١م . باشراف المستشرق ماكس غرونرت .

لابن قتيبة ، و كتاب **الكامل** للمبرّد [١] ، و كتاب **البيان والتبيين** للجاحظ [٢] ، و كتاب **النوادر** لأبي علي القالي البغدادي [٣] . وما سوى هذه الاربعة فتبعٌ لها وفروعٌ عنها . »

هذا النص الذي كتبه ابن خلدون في القرن الهجريّ الثامن [٤] ثمين جداً لأنه يوضح لنا مفهوم الأدب والأديب و كتب الأدب عند العرب حتى عصره على الأقل [٥] . فالأدب ، بحسب هذا المفهوم ، ثقافة عامة واسعة ترمي قبل كل شيء إلى تكوين ملكة البيان لدى صاحبها وجعله قادراً على إجادة التعبير عن أفكاره نثراً أو شعراً . والأديب ، بحسب هذا المفهوم أيضاً ، إنما هو الرجل المثقف الآخذ من كل علم بطرف ، والقادر على التعبير عن أفكاره بالكلام الجيد المنظوم أو المنثور . وأخيراً فإن ابن خلدون إنما يصدر في كلامه هذا عن كتب الادب ذاتها ؛ إذ أن جلّ الكتب العربية التي جرت العادة قبله وفي أيامه بتسميتها بكتب الأدب أو بدواوين الادب تصدّق بمضمونها ما قاله في تعريف الادب.

ولعلّ أوضح ما يميّز كتب الادب من سواها صفتان :

أما **الصفة الاولى** فهي فقدان الاختصاص . فكتاب الادب من

---

(١) ، (٢) ، (٣) : سيأتي الكلام مفصلا على هذه الكتب الثلاثة في هذا الفصل.

(٤) أنهى ابن خلدون تأليف مقدمته سنة ٧٧٩ هـ.

(٥) نقول (على الاقل) لأن هذا المفهوم سيستمر في الحقيقة حتى فجر النهضة العربية الحديثة .

حيث الاساس لا يقتصر على فن واحد بل يطرق شتى الفنون ويتلوّن بمختلف الالوان . وهو ، إلى هذا ، لايتناول كلاً من هذه الفنون أو الالوان بمعالجة منطقية متعمقة تتناوله من كل أطرافه بالتقصّي والاستقراء ، بل تكون معالجته إياها أقرب إلى السطحية والاصطفاء.

وأما **الصفة الثانية** : فهي الاستطراد المستمر . وإن شئت فقل الفوضى. فترى المؤلف ينتقل في كتابه من قصة إلى حديث ، ومن مقطوعة شعرية إلى حكمة أو خطبة ، ومن نبذة تاريخية الى بحث في الحيوان أو النبات أو النجوم ، ومن وصف معركة الى مسألة كلامية أو فلسفية ، ومن نادرة لغوية الى فكاهة شعبية ، ومن مطالعة اجتماعية إلى تفسير آية كريمة أو حديث شريف ، مسوقاً في كل هذا بما يسمى بتداعي الأفكار .... وقد يعود المؤلف بعد هذا المطاف إلى موضوعه الذي بدأ به أو لايعود فإذا عاد اليه فما أسرع ماينصرف عنه من جديد .... وهكذا دواليك .

ولكن هذه الفوضى في كتب الادب مُتعمَّدة ومقصودة لذاتها . وأكثر مؤلفي كتب الأدب يصرّحون في مصنفاتهم أنهم قصدوا قصداً إلى تنوع الانغام لنفي السأم عن السامع والقارىء . ذلك أن هؤلاء المصنفين لم يكونوا يرمون من تأليف كتبهم هذه إلى إكساب القارىء ثقافة عميقة في موضوع بذاته بل إلى جعله **يأخذ منه كل علم بطرف** كما قال ابن خلدون ، أي إلى تثقيفه ثقافة أدبية وفكرية عامة .

ومما تجب الاشارة إليه هنا أن هذه الفوضى تختلف نسبتها من كتاب

إلى آخر ، وأنها أشد ما تكون ظهوراً في كتب الادب الاولى التي ظهرت خلال النصف الاول من القرن الهجري الثالث. ثم أخذ مؤلفو كتب الادب يخففون من غلواء هذا الاضطراب ويدخلون على مصنفاتهم شيئاً من التنظيم والتبويب. ولكن تنوع الموضوعات والاستطراد يبقيان ، على رغم هذه المحاولات، الصفتين الرئيسيتين لكتب الادب.

ومن الانصاف بعد هذا أن نعترف بأن هؤلاء المؤلفين قد وفقوا إلى إدراك مبتغاهم بتنويع موضوعات كتبهم وسلوكهم فيها سبيل الاستطراد غالباً . فالمتصفح لهذه الكتب يجد فيها متعة لا تحد ، لأنه لا يدري وهو يقرأ في احدى الصفحات ماذا تدخره له الصفحة التالية من مفاجآت . كما أن هذا التنوع في كتب الادب جعلها صالحة لكل زمن . فالانسان المثقف في كل عصر محتاج في بعض أوقاته إلى مثل هذه المؤلفات الخفيفة الظل ، المحببة إلى النفس ، التي لا تجهد قارئها ولا تشق عليه، بل تسلبه بمفاجآتها الفكرية وطرائفها الفنية . وأخيراً فإن دواوين الأدب هذه ، بفضل اتساع أفقها وتعدد مراكز الاهتمام فيها ، أصبحت من أهم مصادر الباحثين في دراساتهم الأدبية . فهي مصادر غنية جداً للدراسات المتصلة بالأدب وتاريخه من حيث هو فن من الفنون الجميلة . ولكنها في الوقت ذاته مصادر جد ثمينة لكثير من البحوث اللغوية والتاريخية والاجتماعية والفلسفية .

أشهر كتب الأدب في القرن الهجري الثالث :

ربما كانت المكتبة العربية مدينة للجاحظ قبل سواه بابتداع هذا اللون من المصنفات الأدبية الغنية الجامعة . فكتبه أقدم ماوصلنا في هذا الباب ، وأكثر كتبه انطباقاً على مفهوم كتب الأدب كما اتينا على ذكره اثنان : **الحيوان** و **البيان والتبيين** . وقد الفهما الجاحظ في أواخر حياته وهو مصاب بالفالج الذي ألحّ عليه أكثر من عشرين عاماً قبل أن يودي به سنة ٢٥٥ هـ . ألف أولهما قبل سنة ٢٣٣ وأهداه الى وزير المعتصم والواثق، الكاتب الشاعر الأديب محمد بن عبد الملك الزيّات[١]. وألف ثانيهما بعد ذلك التاريخ ، أي بعد مقتل ابن الزيات . وأهداه الى خصمه العنيف ، قاضي المعتصم والواثق والمتوكل ، الفقيه المتكلم الشاعر أحمد بن أبي دواد[٢] . وقد أشار في **البيان والتبيين** إلى كتاب **الحيوان** في غير موضع[٣] ، مما يدل دلالة قاطعة على أن **الحيوان**

---

(١) من المعروف أن ابن الزيات نكب وعذّب الى أن مات سنة ٢٣٣ هـ . وذلك في مفتتح خلافة المتوكل على الله .

(٢) توفي ابن ابي دواد مفلوجاً سنة ٢٤٠ هـ في خلافة المتوكل على الله .

(٣) انظر (البيان والتبيين) ؛ ج ١، ص ٦٠ وص ٢٢٥ . وأوضح هذه الاشارات قوله في الجزء الثالث منه (ص ـ ٣٠٢) : «كانت العادة في كتاب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الاعراب ونوادر الاشعار ... فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر ان شاء الله . »

أسبق ظهوراً من صنوه **البيان والتبيين**. ولا شك في أن تأليف الجاحظ مثل هذين الكتابين العظيمين ، بعد أن اصطلحت عليه العلل ، دليل على قوة نفسه وجبروت فكره ؛ ولاسيما أنه ملأ كتابيه هذين عذوبةً وابتساماً ومرحاً ؛ وكأن تصنيفه لهما ولأمثالهما كان ينسيه آلامه الجسمية ويجعله يتسلى بنشاط فكره وتوقّد قريحته عن جسده الابتر وطرفيه الباردين .

والجاحظ بعدُ أديب العربية الأكبر في العصر العباسي الأول غير منازع. وهو الرجل الذي تمثل ثقافة عصره - بل ثقافات عصره — ومثلها خير تمثيل في كتبه الكثيرة المتنوعة. وهو الكاتب الذي استطاع بأسلوبه الدافىء الحيّ الوثّاب المتموج أن يجعل آثاره تنبض حياةً على مر العصور . وهو الانسان الاجتماعي الذي ادرك معنى الحياة وقيمتها فاستقطر كل لحظاتها ، واستوحى كلّ مقوّماتها ، وأشبع حواسّه وأحاسيسه ؛ ولم يكن يرى في مظهرٍ من مظاهرها، أو كائن من كائناتها ، ما يُستسخف أو ما لا يليق بالكاتب أن يجعله موضوعاً لحديثه . ولذا جاءت كتبه وفيها من غزارة المادة ، وطرافة الدلالة ، وتدفق الحياة ، ما قلّ أن نجده في في كتاب أدبيّ آخر. ولو ان كتبه فقدت لفقد معها مالا يعوّض من آداب العرب القديمة والمحدثة ، ومن الاشارات الثمينة الى مختلف مظاهر الحضارة الاسلامية في القرنين الثاني والثالث خاصة .

والجاحظ ، على علمه الغزير ، أديب قبل كل شيء . فهو يعرف

كيف ينفذ إلى قلب القارىء بألفاظه الحيّة ، وتعابيره المأنوسة ، ونوادره الطريفة . فتراه يتنقل بقارئه كالفراشة من زهرة إلى زهرة ، ومن حقل إلى حقل ؛ فلا يدعه إلا وقد أفاد من صحبته أعظم الفوائد في عقله وبيانه. وقديماً قالوا في كتب الجاحظ إنها تعلم الانسان أن يكون إنساناً ، وإنها تعلم العقل أولاً والادب ثانياً [١] . ذلك أنها كما قلنا تجمع إلى المعارف الواسعة الطريقة الادبية في التعبير الجميل والتنقل العفوي المرح .

كتاب الحيوان . —

يقول الجاحظ في هذا الكتاب مخاطباً قارئه [٢] :

« ينبغي أن تكون ، إذا مررت بذكر الآية والاعجوبة في الفراشة والجِرْجِسة [٣] ، ألا تحتقر تلك الآية ، وتصغر تلك الاعجوبة ، لصغر

---

(١) روى صاحب (وفيات الأعيان) في ترجمة الجاحظ القصة التالية : « قال أبو القاسم السيرافي : حضرنا مجلس الاستاذ الرئيس أبي الفضل (أي : ابن العميد) ، فقصر رجل بالجاحظ وأزرى عليه . وحلم الاستاذ عنه . فلما خرج قلت له : سكتّ أيها الاستاذ عن هذا الجاهل في قوله ، مع عادتك بالرد على أمثاله ؟ فقال لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله. **ولو واقفته وبينت له النظر في كتبه لصار انسانا** يا أبا القاسم ! **كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً ، والادب ثانياً** ، ولم استصلحه لذلك! »

(٢) الحيوان : ج ٤ ، ص ٢١٠ .

(٣) الجرجسة : البعوضة الصغيرة .

قدرهما عندك ، ولقلة معرفتهما عند معرفتك، ولصغر أجسامهما عند جسمك. ولكن كن عند الذي يظهر لك من تلك الحكم ومن ذلك التدبير كما قال الله عزّ وجلّ : (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء) ...

وأنا أعيذ نفسي بالله أن أقول إلاّ له ، وأعيذك بالله أن تسمع إلاّ له، وقد قال الله عزّ وجل : (وإن تدعهم إلى الهدى لا يهتدوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) . فاحذر من أن تكون منهم ، وممّن ينظر إلى حكمة الله وهو لا يبصرها . »

ومثل هذا التنبيه تردّد في غير موضع من الكتاب . وربما كان هذا هو الغرضَ الاساسيّ من تأليفه . فالجاحظ رأس من رؤوس المعتزلة . وهؤلاء قد أكثروا من الكلام على ما في المخلوقات ـ ومنها الحيوان ـ من حجة على حكمة الخالق (١) .

والقرآن الذي سميت بعض سوره بأسماء بعض الحيوانات (٢) كثيراً ما يضرب الحيوانات أمثالاً على حكمة الله وبديع قدرته (٣) .

---

(١) انظر على سبيل المثال القصيدتين اللتين نظمهما في الحيوان بشر بن المعتمر المعتزلي ؛ وقد اثبتهما الجاحظ في (كتاب الحيوان) وشرحهما (ج ٦ ، ص ٢٨٤ فما يلي)

(٢) كسورة النحل ، والنمل ، والبقرة ، والفيل ، والأنعام .

(٣) من ذلك قوله تعالى : (ألم تر الى الابل كيف خلقت ؟) وقوله : (ان الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) .

يضاف إلى هذا أن الجاحظ ، كسواه من متكلمي عصره ، كان مطّلعاً على ما نقل إلى العربية من آثار اليونان في العلم والفلسفة ، ومنها كتاب الحيوان لأرسطو . كل هذه الأمور شجّعت الجاحظ على تأليف كتاب الحيوان الذي هو الأول من نوعه في اللغة العربية .

ولكن الجاحظ أديب قبل كل شيء؛ فسرعان ما انقلب هذا الموضوع الوقور بين يديه الساحرتين إلى موضوع خفيف الظل ، متعدد الالوان ، متشعب النواحي . وغدا كتابه ، من جرّاء ذلك ، من أغنى كتب الادب بالأخبار والشعر والخطب والاقاصيص والنوادر ، ومن أحفلها بالمعلومات الفلسفية والكلامية والجغرافية والطبية والتاريخية .

وقد تعمّد الجاحظ في كتابه هذا اتباع الطريقة الأدبية ، وأشار الى قصده هذا في اكثر من موضع منه فقال : (١)

« هذا كتاب موعظة وتعريف ، وتفقه وتنبيه . وأراك قد عبته قبل أن تقف على حدوده ، وتتفكّر في فصوله ، وتعتبر آخره بأوله ، ومصادره بموارده . وقد غلّطك فيه بعضُ ما رأيت في أثنائه من مزحٍ لم تعرف معناه ، ومن بطالة لم تطلع على غورها ، ولم تدرِ لِمَ اجتُلبت ، ولأي علة تُكلّفت ، وأيّ شيءٍ أريغ فيها ، ولأي جدٍ احتُمل ذلك الهزل ، ولأيّ رياضةٍ تجشمت تلك البطالة . ولم تدر أن المزاح جدّ اذا اجتلب

---

(١) الحيوان : ج ١ ، ص ٣٧

ليكون علةً للجدّ ، وأن البطالة وقار ورزانة اذا تكلفت لتلك العاقبة . »

وقال في موضع آخر : (١)

« على أني عزمت ـ والله الموفق ـ أني أوشح هذا الكتاب ،وأفصل أبوابه ، بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ، ليخرج قارىء هذا الكتاب من باب الى باب ، ومن شكل الى شكل . فإني رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة ، والاغاني الحسنة ، والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها . وما ذلك إلاّ في طريق الراحة التي اذا طالت أورثت الغفلة . وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح (٢) . وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيراً . »

ويظهر أن تصنيف كتب الأدب على مثل هذه الطريقة ذات الأنغام المتعددة والالوان المختلفة لم يكن بالأمر السهل . والجاحظ مصدقٌ حين يقول في وصف العناء الذي لقيه في سبيل وضع كتابه هذا : (٣).

---

(١) الحيوان : ج ٣ ، ص ٧ .

(٢) ان كثيراً من الادباء ، ومنهم الاستاذ المرحوم أحمد أمين (ضحى الاسلام: ج١ ، ص٣٩٢) يجعلون الجاحظ مسؤولاً عن فوضى كتب الأدب . ولكنّ كلام الجاحظ هنا صريح بأن كثيرين سبقوه الى اتباع هذه الطريقة في كتب صغيرة . فليس من الجائز أن يحمل وحده كل التبعة في هذه الفوضى .

(٣) الحيوان: ج ٤ ،ص ٢٠٨.

« وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه . أول ذلك العلة الشديدة [١] ، والثانية قلة الأعوان ، والثالثة طول الكتاب ، والرابعة أني لو تكلفت كتاباً في طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ، ثم كان من كتب العرض والجوهر والطفرة والتولد والمداخلة والغرائز والتماس [٢] ، لكان أسهل وأقصر أياماً ، وأسرع فراغاً . لأني كنت لا أفزع فيه إلى تلقط الاشعار ، وتتبع الأمثال ، واستخراج الآي من القران والحجج من الرواية ، مع تفرق هذه الامور في الكتب ، وتباعد ما بين الاشكال . »

وهذا الكلام صريح في أن الجاحظ قد اضطره تصنيف كتابه إلى الرجوع إلى عدد وافر من الكتب ، في موضوعات مختلفة . ولو أن كتابه كان مقصوراً على موضوع بذاته أو مسألة بعينها لتخفف من بعض هذا العناء .

والحق يقال ، إن القارىء في **كتاب الحيوان** يلمس بنفسه وفرة الكتب التي استعان بها الجاحظ من أجل جمع شتات المادة الغزيرة المتنوعة التي ضمنه إياها . ولا شك أن في رأس الكتب التي صدر عنها الجاحظ

---

(١) اشارة الجاحظ صريحة هنا الى أنه الف كتابه أثناء مرضه كما ذكرنا.

(٢) كل هذه من المسائل الكلامية التي كان يكثر فيها البحث والجدل . ويجب ألا يغيب عن بالنا أن الجاحظ كان من متكلمي عصره ، وأنه رئيس فرقة من فرق المعتزلة تسمى (الجاحظية) .

الدواوين ومختلف المجموعات الشعرية ؛ وذلك نظراً الى الشعر الكثير الذي انتشر بغزارة في شتى فصول الكتاب . وهو شعر قيل في مختلف الموضوعات ، ولا سيما في وصف الحيوانات من إبل وخيل وظباء ووعول ومها وكلاب وطيور جارحة وسواها. ثم يلي الدواوين والمجموعات الشعرية ما صنف من الكتب في القرآن والحديث والكلام والاخبار ، فما نقل إلى العربية من آداب الفرس وفلسفة اليونان، وفي طليعة كل ذلك كتاب الحيوان لارسطو . فإذا أضفنا الى كل هذه التصانيف الخبرة الشخصية ، والملاحظة الذكية ، والنهم العقلي الذي لا يكاد يشبع ، عرفنا بصورة مجملة مصادر الجاحظ في **كتاب الحيوان** .

أما مضمون الكتاب ، فإن الاستاذ عبد السلام هارون ، محققه في طبعته الأخيرة ، يجمل الحديث فيه قائلاً [١] :

« قد يوهم اسمه أنه قد خصّص بالحيوان وما يمتّ اليه بسبب . **ولكن الحق ان الكتاب معلمة واسعة ، وصورة ظاهرة لثقافة العصر العباسي المتشعبة الاطراف** .

فقد حوى الكتاب طائفة صالحة من المعارف الطبيعية ، والمسائل الفلسفية ؛ كما تحدث في سياسة الاقوام والأفراد ؛ وكما تكلّم في نزاع أهل الكلام وسائر الطوائف الدينية .

---

(١) الحيوان : ج ١ ، ص ٢٨ - ٢٩.

وتحدث الكتاب في كثير من المسائل الجغرافية وفي خصائص كثير من البلدان ، وفي تأثير البيئة في الحيوان والانسان والشجر ، كما تناول الحديث في الاجناس البشرية وتباينها . و كما عرض لبعض قضايا التاريخ .

وفيه كذلك حديث عن الطبّ والامراض : امراض الحيوان والانسان ، وبيان لكثير من المفردات الطبية ، نباتيّها ، وحيوانيّها ومعدنيّها .

وتحدث فيه الجاحظ عن العرب والأعراب واحوالهم وعادِهم[1] ومزاعمهم وعلومهم ، كما أفاض القول في آي الكتاب العربي ، وحديث الرسول العربي ، و كما فصّل بعض مسائل الفقه والدين .

والكتاب كذلك ديوان جمع الصفوة المختارة من حرّ الشعر العربي ونادره ، وناهيك باختيار أبي عثمان ! وإن أردت الأمثال فهو قد جمع منها القدر الكبير ؛ أو أحببت الحديث في البيان ونقد الكلام والشعر وجدت ما ترتاح اليه نفسك وتطمئن .

أما فكاهة الجاحظ فهذه قد نثرت في الكتاب نثراً . وإنها لتطالعك بين الفينة والأخرى متمثلة فيما يروي من نادرة ، أو يحكى من قصة .

---

(١) عاد: جمع عادة.

وأما المجون فلا عليك أن تمرّ به لتظهر لك ناحية من النواحي التي غلبت على كثير من متأدبي عصر الجاحظ التي لم يكن فيها حرج حينئذ ولا خشية .»

من هذا العرض الوجيز تتضح قيمة الكتاب بوصفه مصدراً جليلا للدراسات الأدبية والاجتماعية والعلمية على اختلاف مناحيها. ومن حسن الحظ ان هذا الكتاب الفخم قد زوّد في طبعته الاخيرة بفهرس سماه المحقق (فهرس المعارف) . وهو فهرس لطيف يعين الباحث على الوصول إلى طلبته في الكتاب بأهون جهد وأقصر وقت .

كتاب البيان والتبيين . —

كما كانت دراسة الحيوان ، وذكر فصائله ، وبيان طبائعه ، والتنبيه على مافيه من دلائل على حكمة الخالق وعظيم قدرته ، الفكرةَ الموجّهة في **كتاب الحيوان** ، كذلك كان **البيان** — أي : ظهور المعاني القائمة في النفس بوساطة إحدى الدلالات أو الوسائل التعبيرية — ، **والتبيين** — أي : قدرة الانسان على الإفصاح عن أفكاره وإظهارها بوضوح — ، الفكرةَ الموجّهة في **كتاب البيان والتبيين** . وهذا الكتاب قد ألفه الجاحظ ، كما ذكرنا آنفاً ، في أواخر حياته ، بعد أن انتهى من تصنيف **كتاب الحيوان** .

وفي هذا الكتاب مباحث كثيرة ، عظيمة القيمة ، دقيقة الدلالة ، تتصل بمفاهيم البيان والفصاحة والبلاغة . فالجاحظ يتناول بحديثه الألفاظ؛

فيتكلم على شروط فصاحتها ، ومخارج حروفها ، وعجز بعض الناس عن النطق بها على الوجه الصحيح ، ومايعتريها من لكنة على ألسنة الأعاجم أو مجاوريهم من العرب ، والفرق بين ألفاظ البدو والحضر ، وأسباب اختلاف اللهجات بين الأمصار .. ويخوض كذلك فى حديث البيان والبلاغة : فيبحث في الأفكار ووسائل التعبير عنها ، وعلاقة مظهر المتكلّم ببيانه ، وأثر البيئة والصناعة فيه ، ووجوب التناسب بين اللفظ والمعنى ، وقيمة تنقيح الكلام ، وسوء مغبة هذا التنقيح إذا تجاوز الحدّ الوسط ، ومفهوم البلاغة عند الأمم المختلفة ، وبلاغة المعتزلة أئمة الكلام ، وبلاغة الكتاب والنساك والزهاد والقصاص .. ويتناول الشعر والشعراء ، والخطابة والخطباء بأحاديث كثيرة في مواضع مختلفة من الكتاب : فيتحدث في صفات الشعر الجيد ، ومذاهب الشعراء في تنقيحه ، وأثره الاجتماعي ، وصعوبة الجمع بين بلاغة الشعر وبلاغة القلم ، والشعراء وأزيائهم وطبقاتهم واختلافهم في قوة الطبع ودقة الصنعة . ويذكر مقومات الخطابة ، وموضوعاتها الاساسية ، واختلاف مكانتها باختلاف العصور والأمم ، وأثرها في النفوس ، وأزياء الخطباء وعاداتهم في خطابتهم ، والمشهورين منهم في الجاهلية والإسلام .... وما أشبه ذلك من المباحث التي هي من صميم البلاغة والنقد والأدب .

ولعلّ نقطة الانطلاق في هذا الكتاب رغبة الجاحظ في الثبات أمام دعاة الشعوبيّة ، وتوضيح ماللعرب من مزايا في لغتهم وبيانهم وبديهتهم

وسرعة خاطرهم . ذلك أن المفاضلة بين العرب وسواهم في هذا الباب كانت من المسائل التي عني بها الشعوبيون وخصومهم . وكان في جملة ما يأخذه على العرب خصومُهم استعانتهم أثناء الخطابة بالعصيّ والمخاصر[١] ، واعتمادهم على القسيّ ؛ وكأنما كان ذلك في نظرهم دليلاً على عجزهم وقصورهم وحداثة عهدهم بالحضارة . ومثل هذه السفاسف والاعتبارات السخيفة تبيّن لنا الدرك الذي كان يتهافت نحوه الجدل الشعوبي أحياناً .

وقد دافع الجاحظ عن العرب وبيانهم في كتابه هذا دفاعاً جميلاً ؛ فتكلم على خطابتهم ، وكتابتهم ، وشعرهم ، ولهجاتهم ، ونوادرهم ، ومناظراتهم ، ورويتهم ، وبديهتهم ؛ وذكر عدداً من شعرائهم وخطبائهم وكتّابهم ، مختاراً لهم من أقوالهم مقداراً ضخماً ؛ وأشاد بما جبل عليه العرب من بلاغة وقوة عارضة في باديهم وحاضرهم . ولعلّ دفاعه عن البيان العربي أشدُّ ما يكون وضوحاً في باب مسهب من أبواب كتابه سماه : **باب العصا** ، أراد أن يردّ فيه على تُرّهات الشعوبية حين أخذوا على العرب استعمالهم العصيّ والقسيّ في خطابتهم .

ومن الدلائل على أن الردّ على الشعوبية في هذا المعنى كان من الحوافز الأساسية على تأليف هذا الكتاب ، أننا نرى الجاحظ منذ مفتتح الجزء الثاني منه يقول : [٢] « أردنا أبقاك الله أن نبتدىء صدر هذا الجزء

---

(١) المخصرة : قضيب أو عصا يكون مع الخاطب اذا تكلم . والجمع مخاصر .

(٢) البيان والتبيين : ج ٢ ، ص ٥ .

من **البيان والتبيين** بالرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب ، إذ وصلوا أيمانهم بالمخاصر ، واعتمدوا على وجه الارض بأطراف القسيّ والعصيّ ، وأشاروا عند ذلك بالقضبان والقنا ؛ وفي كل ذلك قد روينا الشاهد الصادق والمثل السائر . ولكننا أحببنا أن نصدّر هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين ، والسلف المتقدّمين ، والجلّة من التابعين ...» ولكن هذا الكلام المختار الذي يحبّ الجاحظ أن يصدّر به الجزء الثاني ، لا يلبث أن يتدفّق ، ويأخذ بعضه برقاب بعض ، حتى يعمّ ذاك الجزء بتمامه . فإذا ما بلغ المؤلف الجزء الثالث من كتابه عاد فافتتحه بقوله[١] : « هذا ، أبقاك الله تعالى ، الجزء الثالث من القول في **البيان والتبيين** . . . ونبدأ ، على اسم الله تعالى ، بذكر الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية[٢] ، وبمطاعنهم على خطباء العرب بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام ومساجلة الخصوم ، بالموزون المقفى والمنثور الذي لم يقف ... »

ويأخذ الجاحظ في تفصيل كلام الشعوبيّة في هذا المعنى ، وأنهم يرون أنه ليس بين الكلام وبين العصا سبب ، ولا بينه وبين القوس نسب ؛ وأن أمم الفرس والروم والهند ، على إعراقها في المنطق وبعد شهرتها في البيان ، لا يلجأ خطباؤها إلى شيء مما يلجأ إليه خطباء العرب

---

(١) البيان والتبيين : ج ٣ ، ص ٥ – ٦ .

(٢) يسمى الشعوبيون أحياناً بأهل التسوية لأن ظاهر دعوتهم كانت المطالبة بالتسوية بين العنصر العربي والعناصر الاخرى .

في خطبهم . « فكيف سقط على جميع الامم من المعروفين بتدقيق المعاني وتخيّر الالفاظ وتمييز الامور ، أن يشيروا بالقناو العصيّ والقضبان والقسي؟ كلاّ . ولكنكم كنتم رعاة بين الابل والغنم فحملتم القنا في الحضر ، بفضل عادتكم لحملها في السفر ، وحملتموها في المدر بفضل عادتكم لحملها في الوبر ، وحملتموها فى السلم بفضل عادتكم لحملها في الحرب.[١] » ويمضي الجاحظ في تفصيل آراء الشعوبية ومزاعمهم على هذا النسق حتى إذا انتهى من عرضها عمد الى الردّ عليها . فبيّن أوّلاً أن اليونانيين إنما كانوا أصحاب فلسفة ومنطق لا أصحاب خطابة ؛ وأن الهنود كانوا أصحاب حكمة وأدب قبل كل شيء ؛ وأنه لم يشتهر بالخطابة حقاً إلا العرب والفرس ، ثم بين الفرق بين خطابة الفرس وخطابة العرب فقال[٢] : « ان كلّ كلام للفرس و كل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهادٍ وخلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكر ودراسة الكتب . وحكاية الثاني علم الأول ، وزيادة الثالث في علم الثاني ؛ حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم . و كل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام وليست هناك معاناة ، ولا

---

(١) ج ٣ ص ١٤

(٢) ج ٣ ، ص ٢٨

مكابدة ، ولا إجالة فكرة، ولا استعانة [١] ...»

ثم يعنف الجاحظ بالرد على الشعوبية حين يقول : [٢] « فتفهم عني ـ فهمك الله ـ ما أنا قائل في هذا . واعلم أنك لم تر قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشدّ استهلاكاً لعرضه ، ولا أطول نصباً ، ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طولُ جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقدّ نار الشنآن في قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعّر تلك النيران المضطرمة . ولو عرفوا أخلاق كلّ ملّة ، وزيّ كلّ لغة ، وعللهم في اختلاف إشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيآتهم ، وما علة كل شيء من ذلك ، ولم اختلقوه ، ولم تكلفوه ، لأراحوا أنفسهم ، ولحقت مؤونتهم على من خالطهم . »

ويستمرّ الجاحظ بعد ذلك في دفاعه عن الخطباء العرب في اخذهم العصا ، مقيماً الدليل من آي القرآن الكريم ، والشعر ، والاخبار على «ان اخذ العصا مأخوذ من اصل كريم ومعدن شريف » ، مستطرداً في كلامه الثرّ المتدفق من حديث إلى حديث ، ومن باب الى باب حتى نهاية الكتاب .

---

(١) جذا لو أن العرب أقل بديهة وارتجالا ، وأحرص على طول التفكر والاجتهاد في جميع أمورهم .

(٢) البيان والتبيين : ج ٣ ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

كل هذا يصح ان يكون دليلا على ان **البيان والتبيين** انما هو في مضمونه وغايته كتاب في الدفاع عن البيان العربي في مختلف مظاهره .

اما طريقة الجاحظ في كتابه هذا فهي كطريقته في كتابه **الحيوان** من حيث الاستطراد ، والتنقل في الباب نفسه ، او من باب إلى آخر ، من جد إلى هزل ، ومن خبر الى شعر ، ومن خطبة الى موعظة او قصة او نادرة ، وعدم الاستمرار طويلا في موضوع بعينه [١] . على ان الطابع الأدبي في **البيان والتبيين** اوضح منه في **الحيوان** ؛ كما ان ما يتضمنه من الشعر والخطب والرسائل والمباحث اللغوية والبلاغية اغزر . ومن هذه الناحية كان هذا الكتاب يفوق **الحيوان** بوصفه مصدراً للدراسات الأدبية واللغوية ؛ وان كان دونه من حيث دلالته على الحياة الاجتماعية والعقلية في العصر العباسي الأول .

كتاب الكامل للمبرد [٢] :

ومن أشهر الكتب الادبية التي ظهرت في القرن الهجري الثالث

---

(١) يقول الجاحظ في (البيان والتبيين) يذكر طريقته في تأليفه : « قد يجري السبب فيجرى معه بقدر ما يكون تنشيطاً لقارىء الكتاب ، لأن خروجه من الباب اذا طال لبعض العلم الكلام ، كان ذلك أروح على قلبه ، وأزيد في نشاطه . » البيان والتبيين : ج ١ ص ١٨٦ .

(٢) طبع الكامل لوحده أكثر من مرة . كما طبع مع شرح المرصفي عليه المسمى (رغبة الآمل من كتاب الكامل) في ٨ أجزاء ، بين سنتي ١٩٢٨ و ١٩٣٠

كتاب **الكامل** لأبي العباس محمد بن يزيد الثمالي الملقب بالمبرّد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ . والمبرد **امام العربية ببغداد** كما يقول ياقوت[١] وزعيم المذهب البصري في اللغة والنحو في عصره . كان واسع الاطلاع على مختلف مناحي الثقافة العربية من لغة ، وشعر ، ونثر ، وأخبار ؛ والف عدداً من المصنفات في اللغة والنحو والصرف والعروض والقوافي والنقد والبلاغة والاخبار ، أشهرها كتاب **الكامل** الذي نحن بصدده[٢] .

و**الكامل** كتاب أدب ، طبقاً لمفهوم هذا النوع من الكتب كما عرضنا لبيانه في مفتتح هذا الفصل . فهو كتاب ثقافة أدبية عامة ، مع ميل شديد الى إيراد النماذج المختارة من الشعر الجميل ، والنثر البليغ ، والاحاديث المأثورة ، والاخبار الطريفة . وهو ككتابي الجاحظ الآنفي الذكر ، كثير التنقل من موضوع إلى آخر ، قلما يستقر طويلاً على فكرة واحدة . وكثيراً ما نرى المبرد — شأنه في ذلك شأن الجاحظ قبله — يصرح بتعمده هذا التنقل والاستطراد ؛ كقوله مثلاً في مطلع أحد ابواب كتابه[٣] : « قال أبو العباس : نذكر في هذا الباب من كل شيء لتكون فيه استراحة للقارىء ، وانتقال ينفي الملل لحسن موقع الاستطراف . ونخلط ما فيه من الجد بشيء من الهزل ، ليستريح اليه القلب وتسكن اليه النفس ... »

---

(١) معجم الادباء : ج ١٩ ، ص ١١٢ .

(٢) انظر مصنفات المبرد في معجم الادباء : ج ١٩ ، ص ١٢١ — ١٢٢ .

(٣) هو الباب ٤٦ الذي يبدأ به الجزء الثاني .

فإذا انتقل إلى الباب الذي يليه بدأه بقوله : (١) « قال أبو العباس : وهذا باب طريف نصل به هذا الباب الجامع الذي ذكرنا ، وهو بعض ما مر للعرب من التشبيه المصيب، والمحدثين بعدهم. » وينتقل من ثم الى باب ثالث يقول في أوله : (٢) : « باب تجتمع فيه طرائف من حسن الكلام وجيد الشعر وسائر الأمثال ومأثور الأخبار إن شاء الله ... » كل هذا دليل على أن تقسيم الكتاب الى أبواب إنما هو نوع من التنظيم الشكلي الظاهري، وأن كل باب من أبواب الكتاب إنما هو عبارة عن مجموعة من المختارات في موضوعات ومعان مختلفة. نعم، إن بعض الابواب القليلة في الكتاب نراها معقودة على نوع واحد من الاخبار او المختارات ؛ مثل الباب السابع والاربعين **في بعض ما مر للعرب من التشبيه المصيب ؛ والمحدثين بعدهم** ، ومثل الباب التاسع والاربعين **من أخبار الخوارج** . ولكن هذه الابواب نفسها ليست في الحقيقة سوى مجموعات من المختارات والاخبار وضعت على غير نسق أو نظام ؛ وليس يجمع بينها سوى الفكرة العامة المسيطرة على الباب . بل كثيراً ما نرى المؤلف خلال هذه الابواب ذاتها يستطرد الى أخبار ، أو يورد مختارات لا صلة لها بالافكار العامة التي بنيت هذه الابواب عليها . ذلك أن المبرد في كتابه هذا كان **أديباً** قبل كل شيء ،

---

(١) انظر الباب ٤٧ من (الكامل) : ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٢) انظر الباب ٤٨ من (الكامل) : ج ٢ ، ص ١٠١ .

ولم يكن مؤرخاً فحسب أو ناقداً او لغوياً . فهو في باب الخوارج لا يؤرخ لهذه الجماعة ، ولا يبحث في عقائدها ومبادئها بحث علم وتحقيق ، وإنما الذي يعنيه أن يذكر من أفرادها **من كان زاخر طريف واتصلت به حكم من كلام وأشعار** .

ومع هذا فبين كتاب المبرد هذا وكتابي الجاحظ اللذين سبق ذكرهما فروق يمكن إجمالها في الملاحظتين التاليتين :

١ ـــ كتاب الكامل أضيق أفقاً من كتابي الجاحظ . فكتب الجاحظ بوجه عام أشد اتصالاً بالثقافات الأجنبية من يونانية وفارسية وهندية، وأعمق تغلغلا في الحياة الاجتماعية المعاصرة ، واكثر اهتماماً بمذاهب الحياة الفكرية المتنوعة في القرن الثالث، ولاسيما المذاهب الفلسفية والعلمية . أما كتاب الكامل فيكاد يكون صورة للثقافة العربية الصرف في عصر المؤلف ، بكل ما يتصل بها من شعر ونثر وأخبار ولغة ونحو وصرف (١) .

٢ ـــ كتاب الكامل كتاب أدب صبغ بصبغة نحوية واضحة لانكاد نلمح لها أثراً في كتابي الجاحظ . ذلك أن المبرد كان كما رأينا إمام العربية في في عصره وزعيم مدرسة البصرة في اللغة والنحو . ولذا لم يكن لكتابه

---

(١) وهذا هو الرأي الذي اتجه اليه الاستاذ أحمد أمين رحمه الله في كتابه (ضحى الاسلام) : ج ١ ، ص ٣١٤ .

بدّ من أن تسيطر عليه نزعة المؤلف اللغويّة واهتمامه بالمباحث النحوية والصرفية . وقد قصد المؤلف إلى كلّ هـذا في كتابه قصـداً كما يتضح من قوله في المقدّمة [١] : «هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب، ما بين كلام منثور ، وشعرٍ مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ، ورسالة بليغة . والنية فيه أن نفسر كلّ ماوقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق ، وأن نشرح مايعرض فيه من الإعراب شرحاً وافياً ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً، وعن أن يُرجع إلى أحدٍ في تفسيره مستغنياً . » ومعنى هذا أن كتاب الكامل كتاب لغة ونحو وصرفٍ قد بُثّ بحنكة وبمقادير مرسومة في تضاعيف مجموعة من النماذج الأدبية الجميلة . وبعبارة ثانية هو كتاب تعليميّ يرمي إلى تزويد قارئه بثقافة أدبية عربية متينة ، وإطلاعه على أسرار اللغة العربية وقواعدها الدقيقة من خلال النصوص المختارة . وهي بلا ريب طريقة مثلى في دراسة الأدب واللغة معاً .

والكتاب ، بعدُ ، مصدر جليل من مصادر اللغة والأدب والتاريخ، لغزارة ما انطوى عليه من بحوث ومختارات وأخبار في هذه الموضوعات.

---

(١) انظر (الكامل) : ج ١ ، ص ٢ .

عيون الاخبار لابن قتيبة[١] :

وأخيراً لابدّ لنا ، ونحن نتكلم على كتب الأدب الشهيرة التي ظهرت خلال القرن الثالث ، من أن نذكر كتاب **عيون الاخبار** لمؤلفه عبد الله ابن مُسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ . وابن قتيبة من أعلام القرن الثالث، ومن الممثلين البارزين لثقافته الخصبة الخيّرة . وكان كالجاحظ يجمع بين الثقافة العربية الصرف وثقافات الحضارة الإسلامية الأخرى، كما كان مثله كثير التصنيف في أنواع العلوم ، فألف في القرآن والحديث والكلام والفقه والأخلاق والتاريخ والنحو واللغة والأدب[٢] . على أن عناية ابن قتيبة بالعلوم الإسلامية واللغوية كانت أعظم من عناية الجاحظ بها ؛ بينما كان الجاحظ أميل منه إلى الدراسات الأدبية والاجتماعية، فخصّها بقسطٍ وافرٍ من اهتمامه .

يتحدث ابن قتيبة في خطبة **عيون الأخبار** مبيّناً غرضه من تأليف الكتاب فيقول : « إني كنت تكلفت لمغفل التأديب من الكتاب كتاباً في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد ... وشرطت عليه مع تعلّم ذلك تحفظ عيون الحديث ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثّلاً إذا كاتب ، ويستعين

---

(١) طبع (عيون الاخبار) في ٤ أجزاء ، في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة بين عامي ١٩٢٥ ـ ١٩٣٠.

(٢) انظر ثبتاً بأسماء مؤلفات ابن قتيبة في الجزء الرابع من (عيون الاخبار)، ص ١٩ ـ ٣٨ .

بما فيها من معنىً لطيف ولفظ خفيف حسن إذا حاور . ولمّا تقلدت له القيام ببعض آلته ، دعتني الهمة الى كفايته . وخشيت إن وَكلْتُه فيما بقي إلى نفسه ، وعوّلت له على اختياره أن تستمرّ مريرته على التهاون ... فأكملت له ما ابتدأت .... » فكلام ابن قتيبة واضح في أنه أراد من تصنيفه هذا الكتاب تزويد الكاتب الناشىء ، أو القارىء بوجه عام ، بما يحتاج إليه في حديثه وكتابته من ثقافة أدبية واسعة ؛ وذلك بعد أن بدأ فألف له **أدب الكاتب** الذي طواه على مسائل لغوية وإملائية يحتاج إليها لتقويم لسانه ويده . ولهذا خلا كتاب **عيون الأخبار** من المباحث اللغوية الصرف ، واقتصر على إيراد الأخبار والمختارات الجميلة في كثير من المعاني الهامّة .

والكتاب غزير المادة ، متنوّع الألوان ، شأن غيره من الكتب الأدبية . وإذا امتاز هذا الكتاب من الكتب التي ذكرناها قبله بشيء ، فبكونه يمثل خطوة في التنظيم نفتقدها في تلك الكتب . ذلك ان ابن قتيبة ما فتىء منذ حداثته يتلقط مادة كتابه من جلسائه وإخوانه ، ومن كتب الأعاجم وسيرهم ، ومن بلاغات الكتاب في فصول من كتبهم (١) ،

---

(١) يقول ابن قتيبة في مقدمة (عيون الاخبار) : « واعلم انا لم نزل تلقط هذه الاحاديث في الحداثة وفي الاكتهال عمن هو فوقنا في السن والمعرفة ، وعن جلسائنا واخواننا ، ومن كتب الاعاجم وسيرهم ، وبلاغات الكتاب في فصول من كتبهم ، وعمن هو دوننا ، غير مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سناً لحداثته ، ولا عن الصغير=

حتى تجمع لديه منها قدر عظيم . ثم شرع في تصنيف هذه المواد أبواباً ، فجمع في كل منها الاخبار المتماثلة ، والاشعار المتشاكلة ، فصارت في اربعة عشر كتاباً ، فأفرد منها اربعة أخرج كلاً منها في كتاب مستقل ، وهي : كتاب **الشعر والشعراء** . وكتاب **المعارف** ، وكتاب **الشراب** ، وكتاب **تأويل الرؤيا** . ثم جمع عشرة الكتب الباقية في هذا الكتاب الضخم الذي سماه **عيون الاخبار** . (١) وهذه الأبواب العشرة التي يتألف منها الكتاب هي كتب : **السلطان** ، **والحرب** ، **والسؤدد** ، **والطبائع والاخلاق** ، **والعلم** ، **والزهد** ، **والاخوان** ، **والحوائج** ، **والطعام** ، **والنساء** . فالكتاب من هذه الوجهة يمتاز بشيء من التنظيم والتبويب .

= قدراً لحساسته ، ولاعن الامة الوكعاء لجهلها ، فضلاً عن غيرها ، فان العلم ضالة المؤمن ، من حيث أخذه نفعه » .

(١) يقول ابن قتيبة في المقدمة : « وهذه عيون الاخبار . نظمتها لمغفل التأدب تبصرة ، ولاهل العلم تذكرة ... وصنفتها ابواباً ، وقرنت الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ، ليسهل على المتكلم علمها ، وعلى الدارس حفظها ، وعلى الناشد طلبها ... واني حين قسمت هذه الاخبار والاشعار وصنفتها ، وجدتها على اختلاف فنونها وكثرة عدد ابوابها تجتمع في عشرة كتب ، بعد الذي رأيت افراده عنها ، وهو أربعة كتب متميزة ، كل كتاب منها مفرد على حدته : كتاب الشراب ، وكتاب المعارف ، وكتاب الشعر ، وكتاب تأويل الرؤيا ... » وسيأتي الحديث عن كتاب (الشعر والشعراء) في الفصل القادم . أما كتاب (الشراب) او كتاب (الاشربة) فقد نشره المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٣٦٦ هـ بتحقيق المرحوم الاستاذ محمد كرد علي . وأما كتاب (تأويل الرؤيا) فيظهر أنه مفقود .

وقلما نجد لابن قتيبة في أحد هذه الأبواب فكرة خاصة أو بحثاً شخصياً؛ إذ ليس الباب سوى مجموعة من الأخبار المنقولة المتصلة بالمعنى الذي بُني عليه، مع جملة من النوادر والأشعار المشاكلة لتلك الأخبار. كما أنه قلما نلمح فيه نسقاً مطرداً أو بحثاً متماسكاً؛ وإنما هو التنقل والوثب والاستطراد كما هي الحال في **البيان والتبيين** أو **الكامل**. ولعل ابن قتيبة كان يتعمد هذا الأسلوب، جرياً على عادة مؤلفي كتب الأدب قبله، ليستمتع بكتابه جميع الناس على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم. فهو يقول في مقدمة كتابه «ولم أر صواباً أن يكون كتابي هذا وقفاً على طالب الدنيا دون طالب الآخرة، ولا على خواص الناس دون عوامهم، ولا على ملوكهم دون سوقتهم، فوفيت كل فريق منهم قسمه، ووفرت عليه سهمه، وأودعته طرفاً من محاسن كلام الزهاد في الدنيا... ولم أخله مع ذلك من نادرة طريفة، وفطنة لطيفة، وكلمة معجبة، وأخرى مضحكة؛ لئلا يخرج عن الكتاب مذهب سلكه السالكون، وعروض أخذ فيه القائلون، ولأروّح بذلك القارىء من كدّ الجدّ وإتعاب الحقّ. فإن الأذن مجّاجة، وللنفس حمضة. والمزح إذا كان حقاً أو مقارباً، ولأحايينه وأوقاته وأسبابٍ أوجبته مشاكلاً، ليس من القبيح ولا من المنكر، ولا من الكبائر، ولا من الصغائر إن شاء الله... وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين.»

ومثل هذا الكلام يذكرنا بكلام الجاحظ في **الحيوان** و**البيان والتبيين**.

وكتاب ابن قتيبة، كالكتب التي سبق ذكرها، من أجلّ مصادرنا الأدبية، وأغزرها بالمعارف، وأحفلها بالأخبار. ويمتاز بحسن التبويب الذي يجعله قريب المتناول، ويعين القارىء على الوصول إلى مبتغاه فيه بكثير من اليسر.

وقد كان لمؤلفات ابن قتيبة عامة، و **عيون الاخبار** خاصة، شهرة كبيرة في القرن الثالث والعصور التي تلته. وانتقلت هذه الشهرة من المشرق الى المغرب، حتى كان أهل الأندلس لا يثقون بعلم من خلت مكتبته من مؤلفات ابن قتيبة. وهذه الشهرة هي التي حملت ابن عبد ربه الأديب الأندلسي المعروف أن ينسج على منواله، فيؤلف كتابه **العقد الفريد** الذي سنتحدث عنه في معرض كلامنا على أشهر الكتب الأدبية المؤلفة في القرن الهجري الرابع.

اشهر كتب الادب في القرن الهجري الرابع:

استمرت حركة تأليف دواوين الادب في القرن الرابع، واتسع نطاقها، فاهتم بها أدباء المغرب والاندلس الذين لاقت لديهم كتب المشارقة رواجاً كبيرا. ولعلّ أشهر كتب الادب في هذا القرن اثنان قدر لهما كليهما أن يبصرا النور في قرطبة، حاضرة الاندلس، وقرن بغداد في ذلك الطرف الآخر من العالم العربي الاسلامي، وهما: كتاب **العقد الفريد** لابن عبد ربه، وكتاب **الامالي** لأبي علي القالي. وسنخصهما بالحديث فيما يلي:

العقد الفريد [١] :

كان الاندلسيون ينظرون الى المشرق نظرة ملؤها الحنين والاعجاب؛ فيسمون مدنهم وقصورهم بأسماء مدن المشرق ولا سيما مدن الشام [٢] ، ويتلقطون آداب المشارقة وعلومهم ، فيحذون حذوها في شعرهم ونثرهم وتصانيفهم . و**العقد الفريد** مثال واضح من أمثلة إعجاب الاندلس بالمشرق وسيره على نهجه .

الف ابن عبد ربه [٣] كتابه في الاندلس بعد ظهور كتاب **عيون الاخبار** في المشرق بنصف قرن او اكثر [٤] . والقارىء للكتابين لا يستطيع

---

(١) أحدث طبعات (العقد الفريد) اثنتان. الاولى : في ٨ أجزاء بتحقيق محمد سعيد العريان ، طبعت في مطبعه الاستقامة بمصر عام ١٩٤٠ . وهي الطبعة التي اعتمدناها في هذه الدراسة، والثانية: في ٧ أجزاء بتحقيق احمد أمين وزملائه، بدىء بطبعها بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر عام ١٩٤٠ أيضاً .

(٢) من أمثلة هذا ان قصرين من قصور قرطبة كان يسمى أحدهما (الدمشق) والثاني (الرصافة) وان أحد ابوابها كان يسمى باب (جيرون) . ذكر ذلك المقري في (نفح الطيب) .

(٣) هو احمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي الاندلسي ، توفي في خلافة الناصر سنة ٣٢٨ هـ وقد تجاوز الثمانين . كان أديباً شاعراً ، وقد بث في ابواب كتابه (العقد الفريد) كثيراً من شعره .

(٤) يرى الاستاذ محمد سعيد العريان محقق (العقد الفريد) أن ابن عبد ربه فرغ من تأليف كتابه قريباً من سنة ٣٢٢ هـ أي قبل موته بست سنين تقريباً . ويعتمد=

إلا أن يخرج بالفكرة التالية ، وهي أن ابن عبد ربه قد قرأ **عيون الاخبار** فأعجب به وبطريقته ، وأراد أن يصنع على مثاله كتاباً للاندلسيين أوفى بالحاجة وأحسن تنظيماً وتبويباً .

وطريقة ابن عبد ربه ، كما يحدثنا عنها في مقدمة كتابه ، هي طريقة ابن قتيبة ذاتها ، من حيث جمع الاخبار وتلقطها من هنا وهناك . ثم تصنيفها في أبواب بحسب معانيها العامة . قال ابن عبد ربه في مقدمة **العقد الفريد** : « وقد ألفت هذا الكتاب ، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ، ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجوهر . ولباب اللباب . وإنما لي فيه تأليف الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش لدور كل كتاب . (١) وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء .... فتطلبت نظائر الكلام ، وأشكال المعاني ، وجواهر الحكم ، وضروب الادب ، ونوادر الامثال . ثم قرنت كل جنس منها الى جنسه ، فجعلته باباً على حدته ؛ ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ، ونظيره من كل باب . » وهذا الكلام يشبه الى حد كبير ما قاله ابن قتيبة في **عيون الاخبار** .

= في تقديره هذا على ارجوزة ابن عبد ربه في مغازي عبد الرحمن الناصر التي فصل فيها أخباره حتى ذلك التاريخ .

(١) المقصود بالفرش هنا ما يقدمه المؤلف من كلامه بين يدي كل كتاب ، ممهداً به لذكر الاخبار والمختارات التي ينطوي عليها .

ويخيل الينا أن ابن عبد ربه ، وإن لم يصرح باسم ابن قتيبة ، فقد كان يعنيه أكثر من سواه حين أشار في مقدمة كتابه الى مؤلفي كتب الادب قبله ، والى رغبته في أن يكون كتابه أكمل من كتبهم ؛ وذلك حين يقول : « وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة في فنون الاخبار ، ولا جامعة لجمل الآثار . فجعلت هذا الكتاب كافياً ، جامعاً لاكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة ، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة . وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الاخبار في معانيها ، وتوافقها في مذاهبها . وقرنت بها غرائب شعري ، ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه ، حظاً من المنظوم والمنثور . »

صنف ابن عبد ربه كتابه في خمسة وعشرين باباً ، بينها وبين أبواب **عيون الاخبار** العشرة شبه كبير . فهنالك سبعة أبواب مشتركة بين الكتابين هي : **السلطان** ، **والحروب** ، **والعلم والادب** ، **والمواعظ والزهد** ، **والطبائع والطعام** ، **والنساء** . كما أن عدداً آخر من أبواب **العقد** نجده مفرقاً في تضاعيف بعض ابواب **عيون الاخبار** . فكتاب **الاجوبة** ، وكتاب **الخطب** — وهما الكتابان الثاني عشر والثالث عشر من **العقد** — كلاهما من موضوعات كتاب **العلم** في **عيون الاخبار** . وكتاب **مخاطبة الملوك** — وهو الكتاب الخامس من **العقد** — فرع من فروع كتاب **السلطان** في **عيون الاخبار** . وكتاب **اخبار زياد والحجاج والطالبيين** — وهو الكتاب السادس عشر من **العقد**

معنى من معاني كتاب **الحروب** في **عيون الاخبار**. وأخبار **البخلاء والطفيليين** - التي تؤلف الكتاب الثاني والعشرين من **العقد**، نجد ما يماثلها في كتاب **الطعام** من **عيون الاخبار** ... كل هذا يؤكد سير الاديب الاندلسي على نهج سلفه البغدادي كما قدمنا.

ومن ابتكارات ابن عبد ربه في كتابه - وهو ابتكار ينسجم مع ذوق الاندلسيين وعنايتهم بالزينة والزخرف - أنه سمى كل باب من الأبواب الاثني عشر الاولى في كتابه باسم جوهرة من الجواهر الكريمة. فهو يقول مثلاً: كتاب **اللؤلؤة** في السلطان، وكتاب **الفريدة** في الحروب، وكتاب **الزبرجدة** في الاجواد والاصفاد [١]، وكتاب **الجمانة** في الوفود، الخ .. وسمى الكتاب الثالث عشر باسم **الواسطة**، وهي الحبة الوسطى في العقد. وسمى الابواب الباقية، من الباب الرابع عشر حتى الباب الخامس والعشرين باسم الجواهر نفسها مكررة. فهو يقول: كتاب **اللؤلؤة الثانية** في الفكاهات والملح، وكتاب **الفريدة الثانية** في الطعام والشراب، وكتاب **الزبرجدة الثانية** في طبائع الانسان وسائر الحيوان، وكتاب **الجمانة الثانية** في المتنبئين والبخلاء والطفيليين ... الخ. من هنا عنوان الكتاب: **العقد الفريد** [٢]؛ إذ ان ابواب الكتاب تؤلف بمجموعها

---

(١) الاصفاد جمع صفد - بفتح الفاء - وهو العطاء.

(٢) يذهب بعض الباحثين الى ان اسم الكتاب في الاصل (العقد)، وان وصفه بالفريد =

عقداً متناظراً، تتوسطه الواسطة، وتتقابل فيه الجواهر الكريمة من الطرفين.

وكتاب **العقد الفريد**، وإن ظهر في الاندلس، فإنه لا يختلف في الوانه الثقافية عن كتب الادب المشرقية. ولولا النماذج الكثيرة التي يأتي بها المؤلف من شعره الشخصي ويبثها هنا وهناك في مختلف ابواب كتابه، ولولا بعض الاخبار الاندلسية القليلة التي يلقاها القارىء عرضاً متناثرة في مواضع قليلة من الكتاب، لقلنا إن الكتاب بجملته صورة من صور أدب المشرق. وهذا ما يفسر لنا القصة التي رواها ياقوت في **معجم الادباء**:

قال ياقوت: «بلغني أن الصاحب بن عبّاد سمع بكتاب **العقد** فحرص حتى حصل عنده. فلما تأمله قال: هذه بضاعتنا ردّت إلينا، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من اخبار بلادهم، وانما هو مشتمل على اخبار بلادنا، لا حاجة لنا فيه. فردّه.[1]» ولسنا نرى من سبب لهذه الصبغة المشرقية التي اصطبغ بها الكتاب سوى اعجاب الاندلسيين آنذاك بالمشرق، أدبه وأدبائه، وحرصهم على أن يحذوا حذو الأدباء المشارقة في تآليفهم.

ولكن مهما يكن للصاحب بن عباد من رأي في **العقد**، فإن لهذا الكتاب في نظر الباحثين والأدباء قيمة كبيرة بوصفه مصدراً غنياً من مصادر

= نعت متأخر، ولهم على ذلك ادلة. وهذا في الاصل رأي المستشرق الالماني بروكلمان. انظر في هذا الموضوع كتاب جبرائيل جبور (ابن عبد ربه وعقده)، ص ٢٩-٣١.

(١) معجم الادباء: ج ٤، ص ٢١٤ - ٢١٥.

تراثنا الأدبي العربي في المشرق . وليس لسخط الصاحب من سبب سوى أنه كان يطمع أن يرى في الكتاب صورة لأدب المغرب والاندلس فخاب ظنه . ولو أن الكتاب ظهر في ذلك العصر في بغداد ؛ أو قام على تصنيفه أحد أدباء المشرق لما قابله الصاحب بشيء من هذا الحرد. يضاف إلى هذا أنه ـ على مابين كتاب **العقد** وكتب الادب المشرقية من تشابه في الغرض والمنهاج والمادة ـ ليس في وسع أحد أن ينكر ماانفرد به هذا الكتاب من مادة أدبية وتاريخية ثمينة استقاها مؤلفه من كثير من الكتب التي أصبحت اليوم أثراً بعد عين . وهذا وحده كاف ليحفظ للكتاب مكانه الى جانب دواوين الأدب الاخرى بين مصادرنا الادبية القيمة .

كتاب الامالي للقالي[١] :

ربما كان ذكر كتاب **الامالي** لأبي علي القالي البغدادي[٢] من

---

(١) طبع كتاب « الامالي » في جزأين في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٦ م . وألحق به جزء ثالث يتضمن « ذيل الامالي » و « النوادر » للمؤلف نفسه ، وجزء رابع يتضمن كتاب (التنبيه على اوهام ابي علي القالي في أماليه) لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الاندلسي المتوفي سنة ٤٨٧ هـ .

(٢) هو ابو علي اسماعيل بن القاسم القالي ـ نسبة الى « قالي قلا » وهي بلد من اعمال ارمينية أصله منها ـ ؛ ويلقب بالبغدادي لطول مقامه في بغداد . درس في بغداد على كبار مشايخ عصره الحديث واللغة والنحو والادب ، ورحل الى الاندلس تلبية لدعوة الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٠هـ ، فكان موضع اكرام الحكام والعلماء . وهناك =

خير مايختم به هذا الفصل ؛ لانه من أمتع الكتب الأدبية ، وأغناها مادة واضبطها رواية ، وأدقها تحقيقاً . ولاغرابة في ذلك ، فقد عُرف المؤلف في عصره بصحة العلم وثقة الرواية حتى طبقت شهرته آفاق العالم الاسلامي آنذاك ، مما حمل الخليفة الأموي العظيم الناصر عبد الرحمن بن محمد أن يستدعيه من بغداد الى عاصمة ملكه قرطبة ليشرف على تأديب ولده وولي عهده الحكم ، وليذيع في حاضرة الاندلس ما كان يعيه في صدره من علم وأدب . وهناك في قرطبة ذاتها ، وفي المسجد الجامع بالزهراء أيضاً ، كان يجلس القالي كلّ خميس ليملي على طلابه دروساً ممتعة في الأدب ، طافحة بالاخبار والأشعار والامثال والبحوث اللغوية الشيقة ، تلك الدروس التي تألف منها كتاب **الامالي** الذي نحن بصدده . وكان يملي دروسه من حفظه ، مسبقاً كل خبر أوشعر يرويه بأسناده ، على عكس مؤلفي الكتب الأدبية قبله ، كالمبرد وابن قتيبة وابن عبد ربه ، الذين لم يكونوا يعنون بذكر أسانيدهم اومصادرهم .

ولنستمع إلى أبي علي القالي يحدّثنا عن مضمون أماليه ، وطريقته في املائها ، بعد أن يقصّ علينا حديث رحلته ، وحديث الخليفة العظيم الذي أفاء عليه رعايته وهيّأ له أسباب تأليف كتابه . قال القالي في مقدّمة كتابه : «إني لما رأيت العلم أنفس بضاعة ، أيقنت أن طلبه أفضل تجارة . فاغتربت

= قضى بقية حياته في التدريس والتأليف . الى ان توفي سنة ٣٥٦ هـ في خلافة الحكم المستنصر بالله بن الخليفة عبد الرحمن الناصر .

للرواية ولزمت العلماء للدراية . ثم أعملت ذهني في جمعه ، وشغلت ذهني بحفظه حتى حويت خطيره ، وأحرزت رفيعه . ورويت جليله ، وعرفت دقيقه، وعقلت شارده، ورويت نادره ، وعلمت غامضه ، ووعيت واضحه. ثم صنته بالكتمان عمن لا يعرف قدره ، ونزهته عن الاذاعة عند من يجهل مكانه ، وجعلت غرضي أن أودعه من يستحقه ، وأبديه لمن يعلم فضله ، وأجلبه الى من يعرف محلّه ... حتى تواترت الأنباء المتفقة ، وتتابعت الصفات الملتئمة، التي لا تخالجها الشكوك، ولا تمزجها الظنون، بأن مشرّفه في عصره أفضل من ملك الورى... أمير المؤمنين وحافظ المسلمين ، وقامع المشركين ، ودافع المارقين ... عبد الرحمن بن محمد ... فخرجت جائداً بنفسي ، باذلاً لحشاشتي ، أجوب متون القفار ، وأخوض لجج البحار ، وأركب الفلوات ، واتقحم الغمرات ... فمنّ الله جلّ وعزّ بالسلامة ، وحبا تعالى ذكره بالعافية ، حتى حللت بعُصرَة [1] الخُوّاف ، وعصمة المضاف ، والمحلّ الممرع ، والربيع المخصب ، فناء أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمدّ ... وصحبت الحيا المحسِب [2] والجواد المُفضل، الذي اذا وعد وفى ، وإذا اوعد عفا... الحكم، فرأيته ـ أيده الله ـ أجلّ الناس بعد أبيه خطراً ، وأرفعهم قدراً ... فتابعا لديّ النعمة ، وواترا علي الاحسان حتى

---

(١) العصرة : الملجأ .

(٢) الحيا : الغيث ، والمحسب : المجزل، من قولهم : احسبه وحسبه ـ بتشديد السين ـ اذا آواه واطعمه وسقاه .

ابديت ما كنت له كاتماً ... فأمليت هذا الكتاب مه حفظي في الأخمسة بقرطبة ، وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة . واودعته فنوناً من الاخبار ، وضروباً من الاشعار ، وغرائب من اللغات . على اني لم اذكر فيه باباً من اللغة إلاّ اشبعته ، ولاضرباً من الشعر إلا اخترته ، ولافناً من الخبر إلاّ انتخلته ، ولانوعاً من المعاني والمثل إلا استجدته ، ثم لم اخله من غريب القرآن ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . على انني اوردت فيه من الابدال مالم يورده احد ، وفسّرت فيه من الاتباع [1] مالم يفسّره بشر ، ليكون الكتاب الذي استنبطه إحسان الخليفة جامعاً ، والديوان الذي ذكر فيه اسم الامام كاملاً . »

والكتاب في جملته مجموعة جدّ غنيّة من الاخبار والنصوص الجميلة ، ولاسيما الشعر النادر القيّم الذي يدل اختياره على ذوق مرهف اصيل ورواية واسعة متنوعة ، ويتخلل هذه الاخبار والنصوص شروح وتعليقات لغوية تدل على اطلاع واسع على اللغة العربية . غريبها وخصائصها . واذا كان كتاب **الكامل** للمبرّد كتاب **أدب ونحو** ، **فأمالي** القالي كتاب **أدب ولغة** .

أما طريقة الكتاب فهي الطريقة نفسها المتبعة في تأليف هذا النوع من الكتب ، من حيث الاستطراد المستمر ، وعدم الثبات على موضوع واحد . وربما كان كتاب **الامالي** من حيث مبناه أقرب الى كتاب **البيان**

---

(١) بحوث الابدال والاتباع يجدها الطالب في الجزء الثاني من (الامالي) .

والتبيين أو الكامل منه إلى عيون الاخبار أو العقد الفريد، ذلك انه عبارة عن أمالٍ متتالية في اللغة والأدب لم يحاول مملِيها أن يصنفها في أبواب كما فعل ابن عبد ربه، او ابن قتيبة قبله.

❀❀❀

هذا أشهر ما الف خلال القرنين الثالث والرابع، في مشرق العالم العربي ومغربه، من كتب الادب، اومن دواوين الادب كما يسميها ابن خلدون.

وليس معنى هذا اننا جئنا في هذا الفصل على ذكر جميع الكتب المصنفة في هذا الفن، وإنما لم يكن لنا بد من الاصطفاء في مثل هذا الكتاب المحدود في خطته ومرماه. وكان جديراً بنا ان نذكر هنا كتاب **الاغاني** لأبي الفرج الاصفهاني، فهو بلا ريب من اشهر كتب الادب في القرن الرابع واحفلها بالمعارف. ولكن منهاج ابي الفرج في كتابه هذا يختلف عن منهاج مؤلفي كتب الادب التي ذكرناها من بعض الوجوه. ولذا رأينا ان نترك الكلام على هذا الكتاب الى الفصل القادم، بين مصادرنا الهامة في تراجم الشعراء.

واقتصارنا على الاشارة الى أشهر الكتب المؤلفة في القرنين الثالث والرابع لا يفيد أن حركة التأليف في هذا المضمار قد توقفت فيما بعد. بل لقد استمر التأليف على هذا النحو في اواخر القرن الرابع والقرون التالية. وظهرت

في هذا الباب مصنفات كثيرة معروفة وما **أمالي** السيد المرتضى [١] ، **وأمالي** ابن الشجري [٢] ، **وزهر الآداب** للحصري القيرواني [٣] سوى بعض معالم التأليف في هذا الباب خلال القرنين الخامس والسادس . بل إنّ الموسوعات الأدبية الضخمة التي ظهرت في عصور الانحطاط ، مثل **صبح الاعشى** للقلقشندي **ونهاية الأرب** للنويري ، ليست سوى امتداد مضخّم لحركة تأليف دواوين الأدب حسب الطريقة التي وصفناها . ولكننا رأينا الاقتصار هنا على ذكر أشهر كتب الادب في القرنين الثالث والرابع لأنها أقدم عهداً وأكثر أصالةً مما ظهر بعدها .

❀ ❀ ❀

---

(١) هو الشريف ابو القاسم علي بن الحسين بن موسى اخو الشريف الرضي الشاعر المشهور ، توفي ببغداد سنة ٤٣٦ هـ . طبعت « اماليه » سنة ١٩٠٧ م .

(٢) سبقت ترجمة ابن الشجري ، كما سبقت الاشارة الى اماليه في ص ١٠٢ ، حاشية (١).

(٣) ابو اسحق ابراهيم بن علي القيرواني ، أديب مغربي من رجال القرن الخامس ، توفي سنة ٤٥٣ هـ . طبع كتابه لاول مرة طبعة مستقلة في ٤ اجزاء بعناية الاديب المصري المرحوم زكي مبارك عام ١٩٢٥ م .

الفصل الثالث

كتب تراجم الادباء

كتب التراجم من المراجع التي لا يكاد يستغني عنها الباحث ، لأن النابغين في كل علم وفنّ هم معالم تطوّر حياة الانسان الفكرية، وتاريخهم تاريخها. يضاف الى هذا أن الكشف عن الاعلام التي يكثر ورودها في النصوص والوثائق يزيد هذه النصوص والوثائق وضوحاً ويقربها من الافهام .

ولقد كان من حق هذا الفصل أن نرجئه الى حين الكلام على الحركة التاريخية في الباب الثالث من هذا الكتاب .ولكننا رأينا استباق الأمور، وأن نخص كتب تراجم الأدباء بفصل من هذا الباب المعقود على حركة التأليف في الأدب، لما بين هذه الكتب وبين حركة التأليف الأدبي من صلة واشجة . ففن تدوين التراجم فرع هام من فروع الحركة التاريخية ؛ ولكن تدوين تراجم الادباء ، مع ارتباطه الشديد بالمنهج التاريخي ، وثيق الصلة بالبحوث والدراسات الادبية خاصة .

وقد عني أسلافنا بتدوين تراجم الرجال على اختلاف عصورهم

وأوطانهم ، وتنوّع طبقاتهم واختصاصهم . وسنرى المدى الذي بلغته عنايتهم هذه اثناء كلامنا في الباب القادم على الحركة التاريخية . ولعلّنا لا نبالغ إذا قلنا إن المكتبة العربية هي من أغنى مكتبات الأمم بكتب التراجم . وإن دلّ هذا على شيء فعلى تقدير الثقافة العربيـة للفردية الانسانية واحترامها للانسانية من خلال الانسان . ومبعث هذه العناية في البدء انما هو الاهتمام بتدوين تراجم الصحابة وطبقات المحدثين، لما لهذا التدوين من صلة بالدين والتشريع . وهذا يحاكي ما كنا اشرنا اليه آنفاً من أن الدافع الديني كان أيضاً من أقوى البواعث على العناية برواية اللغة والادب ، لما له من شأن في توضيح معاني القرآن والحديث . وكما أن الحركة اللغوية والأدبية المنبعثة عن اهتمام ديني في بادىء الأمر قد اتّسعت آفاقها فيما بعد ، وتشعبت فروعها ، وأصبحت مقصودة لذاتها ؛ كذلك الأمر في فن التراجم ؛ إذ سرعان ماتعددت حلقاته واتسعت حتى شملت أجناساً من طبقات الرجال والنساء ممن ليس لتراجمهم صلـة بشؤون الدين والتشريع .

ورجال الأدب من شعراء وكتاب ولغويين ونحويين ومصنفين كانوا كسواهم موضع عناية المؤرخين ومدوني التراجم. ولتسهيل البحث في الكتب المصنفة في تراجمهم سنقسم هذه الكتب بحسب مضمونها الى الزمر الثلاث التالية :

أ – الكتب المصنفة في تراجم الشعراء .

ب — الكتب المصنفة في تراجم اللغويين والنحاة.

ج — الكتب المصنفة في تراجم الأدباء عامة دون تمييز في الاختصاص.

وجريا على عادتنا في هذا الكتاب سنقتصر على ذكر أشهر الكتب في كل زمرة من هذه الزمر، مع الحرص على مراعاة الترتيب الزمني في عرضها، كي يتتبع القارىء بنفسه تطوّر التأليف في هذا الباب من جيل إلى آخر.

أ — الكتب المصنفة في تراجم الشعراء

إنّ الكتب التي جمعت فيها تراجم الشعراء كثيرة ومتنوعة: فمنها ما قُصر مثلاً على تراجم قدماء الشعراء الجاهليين والاسلاميين؛ ومنها ما اتّسع لأخبار الشعراء الذين سبقوا عصر المؤلف جميعهم؛ ومنها ما تناول قطراً بعينه فترجم لشعرائه لا يتعدّاهم؛ ومنها ما شمل أقطار العالم العربي كله آنذاك؛ ومنها ما اتجه اتجاهاً معجميا فذكر كلّ الشعراء ولم يغفل ذكر أحدٍ منهم ولو كان مقلاً أو مغموراً؛ ومنها ما بُني على الانتقاء فلم يذكر سوى المشهورين الذين يكثر تداول شعرهم او الاحتجاج به. وسنرى فيما سنذكره أمثلة لهذه الاتجاهات كلها في تدوين تراجم الشعراء.

طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين[1] — هذا الكتاب الذي

---

(١) طبع الكتاب طبعة أخيرة جيدة، بعنوان (طبقات فحول الشعراء)، بتحقيق محمود محمد شاكر. نشرته دار المعارف بمصر ١٩٥٣.

ألفه محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣١ هـ [١] هو من أقدم الكتب التي وصلتنا في تراجم الشعراء. والكتاب كما يظهر من عنوانه هو من كتب **الطبقات**. وتأليف الطبقات في الأصل معناه تصنيف رجال علمٍ أو فنٍّ أو مذهبٍ بحسب أزمانهم، كلّ جيلٍ في طبقة. ومنشأ هذا الاتجاه في تدوين التراجم إنما هو علم الحديث ورغبة أصحابه في تصنيف رواته على طبقات، حتى تعرف أزمانهم وأجيالهم، وبذلك يتهيأ للمحدثين دراسة الأسانيد ونقدها وتبيّن ما قد يكون فيها من خلل. ثم انتقل تصنيف الطبقات من الحديث إلى العلوم الأخرى، فألفت الكتب العديدة في طبقات القرّاء والفقهاء والحكماء والأطباء والنحاة والشعراء.

ولكنّ هذا المصطلح، أي مصطلح **الطبقات**، لم يحتفظ بمدلوله الزمني هذا في جميع كتب التراجم، بل فقده في بعضها حتى أصبح أحياناً مرادفاً لقولنا: كتاب أو معجم في التراجم. يدلّ على ذلك مثلاً بعض كتب الطبقات التي رتبت فيها التراجم على حروف الهجاء، ككتاب السيوطي الذي سيرد ذكره في تراجم أصحاب اللغة، وعنوانه: **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**..

هذا المصطلح قد يطلق أحياناً ويراد به تصنيف المترجم لهم في طبقات، لا بحسب أجيالهم وازمانهم، ولكن بحسب منازلهم وأقدارهم

---

(١) سبقت ترجمة ابن سلام الجمحي في ص (٨١)، حاشية (٧)

في الفن أو العلم الذي عُرفوا به . وهذا المعنى القيمي ، لا الزمني ، هو المقصود في كتاب ابن سلام الذي نحن بصدده . فقد قسم ابن سلام كتابه إلى قسمين ذكر في الأول منهما مشاهير شعراء الجاهلية ، وفي الثاني مشاهير شعراء صدر الاسلام . أما المخضرمون فلم يعتبرهم المؤلف — وهو على حق في ذلك — زمرة زمنية مستقلة ، بل ذكر بعضهم بين شعراء الجاهلية وبعضهم بين شعراء الاسلام . فذكر مثلاً عمرو بن أحمر الباهلي ، وأبا زبيد الطائي ، وسحيم بن وثيل الرياحي ، وحميد بن ثور ، والأغلب العجلي — وهم جميعاً من المخضرمين — في طبقات الاسلاميين ، كما ذكر كعب بن زهير ، والحطيئة ، والنابغة الجعدي ، وأبا ذؤيب الهذلي ، والشماخ بن ضرار ، ولبيد بن ربيعة وهم جميعاً من المخضرمين أيضاً ـ في طبقات الجاهليين .(١)

وقد اختار ابن سلام من الجاهليين ومن جانسهم بهم من المخضرمين أربعين شاعراً جعلهم في عشر طبقات ، كلّ أربعة منهم في طبقة ، بعد أن *نزلهم منازلهم وألف من تشابه شعره منهم الى نظرائه* . وعلى هذا النسق نفسه جرى في تصنيف القسم الثاني من كتابه الخاص بالشعراء الإسلاميين ومن يجانسهم من المخضرمين . وألحق المؤلف بطبقات الجاهليين طبقات

---

(١) يؤخذ على الكتاب مع ذلك بعض الاضطراب الزمني ، اذ أن بعض الشعراء الجاهليين ـ مثل بشامة بن الغدير وقراد بن حنش — قد ذكروا في طبقات الاسلاميين .

أخرى لم يشأ أن يدمجها بالطبقات العشر الأُوَل. وذلك لأن لشعراء هذه الطبقات صفاتٍ خاصة تجمع بينهم وتميزهم من سواهم من شعراء الجاهلية، إما من حيث الفن الشعري الذي اشتهروا به، أو من حيث البيئة التي نشؤوا فيها، أو من حيث الدين الذي كانوا يدينون به. فهناك **طبقة أصحاب المراثي**، وهي مؤلفة من أربعة شعراء: متمم بن نويرة، والخنساء، وأعشى باهلة، وكعب بن سعد الغنوي. وهؤلاء الشعراء إنما عرفوا بفن واحد، هو الرثاء، على عكس فحول الطبقات العشر الأُوَل الذين نظموا في الفنون الشعرية المختلفة. وهناك أيضاً **طبقة شعراء القرى العربية**. وهؤلاء يتميزون بنشأتهم الحضرية. وتضم هذه الطبقة ثلاثين شاعراً صُنفوا زمراً بحسب القرى التي عاشوا فيها: فهناك شعراء المدينة، وشعراء مكة، وشعراء الطائف، وشعراء البحرين. وهناك أخيراً شعراء يهود المدينة في زمرة على حدة.

ويبلغ عدد الشعراء الجاهليين والإسلاميين الذين ذكرهم ابن سلام في كتابه هذا مئة وأربعة عشر شاعراً جلّهم من المشاهير الذين يكثر الاحتجاج بشعرهم في العربية. وتراجم ابن سلام تتضمن بوجه عام نسب الشاعر وبعض أخباره المشهورة وآراء العلماء فيه ونماذج مختلفة من شعره. ورواية ابن سلام لهذه الأخبار والأشعار مشفوعة غالباً بأسنادها، وتدلّ على كثير من التحري والدقة. وتختلف هذه التراجم طولاً وقصراً: فمنها ما يطول حتى يتجاوز الصفحات العشر، وفي هذه

الحال تكون الترجمة وافية ومنطوية على نخبة قيمة من شعر الشاعر وأخباره وأقوال النقاد فيه . ومنها ما يقصر حتى يكون في أسطر أو كلمات معدودة، وفي هذه الحال تفقد الترجمة كثيراً من قيمتها .

ويمتاز هذا الكتاب بمقدمته الجليلة التي هي من أقدم ما كتب في النقد الادبي . وقد ضمّنها ابن سلام صفوة آرائه في النقد وما يحتاج إليه صاحبه من ثقافة وخبرة ، وفى نشأة علم العربية ، وفي أولية الشعر وما اعترى روايته من وضع وفساد على أيدي بعض الرواة الذين لم تتوفر فيهم شروط الامانة العلمية . وهذه المقدمة ، على اضطرابها وعبث النساخ بها، تدلّ دلالة واضحة على ما كان يتحلّى به ابن سلاّم من ورع علمي ، وفكر ثاقب ، وحسّ نقدي أصيل .

كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة :(١)

وهذا الكتاب الذي ألّفه عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ هو أيضاً من أقدم الكتب العربية التي نعرفها في تراجم الشعراء . وقد حدّد المؤلف موضوع كتابه في الأسطر الأولى من مقدمته حيث يقول: « هذا كتاب ألّفته في الشعراء. أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم،

---

(١) طبع كتاب (الشعر والشعراء) طبعة اخيرة حسنة بتحقيق أحمد محمد شاكر، نشرته دار احياء الكتب العربية بالقاهرة في جزأين سنة ١٩٥٠ .

وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم ، وأسماء آبائهم ، ومن كان يعرف باللقب او الكنية منهم . وعما يستحسن من أخبار الرجل ويُستجاد من شعره، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم او معانيهم ، وماسبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون ... وكان اكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جلّ اهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو ، وفي كتاب الله عزّ وجلّ وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأما من خفي اسمه وقلّ ذكره وكسد شعره وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص ، فما أقلّ من ذكرت من هذه الطبقة ! » .

ويتضح من هذا القول أن ابن قتيبة لم يشأ أن يجعل من كتابه معجماً يذكر فيه جميع الشعراء ، وإنما اختار له أشهر الشعراء ، ولا سيما اولئك الذين يكثر العلماء من الاستشهاد بأشعارهم في علوم الدين والعربية .

ويختلف هذا الكتاب عن الكتاب السابق من حيث المضمون والخطة. أما من حيث المضمون فإن ابن قتيبة لم يقتصر في كتابه على ذكر الشعراء الجاهليين والاسلاميين كما فعل ابن سلاّم ، بل تناول بالذكر أيضاً عدداً من المحدثين الذين عاشوا في القرن الثاني وأوائل القرن الثالث . وقد دفعه إلى ذلك مبدأ المساواة في النقد بين القدماء والمحدثين ، وهو المبدأ الذي نادى به في مقدّمته ودافع عنه دفاعاً مجيداً ، مخالفاً بذلك مذهب بعض العلماء الذين كانوا يفرطون فى التعصب للقديم ، وذلك حين يقول:

« ولم اسلك فيما ذكرته من شعر كلّ شاعرٍ ، مختاراً له ، سبيل من قلد او استحسن باستحسان غيره . ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلاً حظه ، ووفرت عليه حقه . فإني رأيتُ من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولاعيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ، أو أنه رأى قائله . ولم يقصر الله العلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم . بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده . وجعل كلّ قديم حديثاً في عصره . »

وأما من حيث الخطة ، فإن **الشعر والشعراء** كتاب في تراجم الشعراء وليس كتاب **طبقات** ككتاب ابن سلاّم . فابن قتيبة ينظر في كتابه إلى كل شاعر بمفرده ، فيذكر أخباره وأشعاره وأقوال العلماء فيه ، ولا ينظر إلى الشعراء نظرة تصنيفية طبقية هي — مهما يقل فيها — موضع للأخذ والردّ .

والمتصفح لكتاب ابن قتيبة يرى أن المؤلف قد حرص فيه على إيراد تراجم الشعراء مراعيا في تتابعها الترتيب الزمني ، لاعلى وجه الدقّة والضبط ولكن في خطوطه العامة . نعم ، إن ابن قتيبة لم يُشر في كتابه إلى رغبته في اتباع هذا النهج الزمني في ترتيب تراجمه ؛ ولكنه بصورة عفوية يبدأ بإيراد تراجم الجاهليين والمخضرمين ، ثم يثني بتراجم الاسلاميين ،

وينهي كتابه بتراجم المحدثين أمثال ابي العتاهية والعباس بن الاحنف ومسلم بن الوليد ودعبل ومن في طبقتهم . هذا مع العلم ان المؤلف لم يراع هذا الترتيب مراعاة دقيقة ؛ فقد يذكر بعض المخضرمين قبل الجاهليين، وقد يذكر بعض الجاهليين بعد الاسلاميين. ولكن منهاج الكتاب يبقى بوجه عام ذا صبغة زمنية واضحة .

وما دمنا في معرض المقارنة بين كتابي ابن سلام وابن قتيبة فلا يفوتنا أن نشير الى أن كتاب **الشعر والشعراء** هو أوسع الكتابين وأغزرهما بالتراجم. ذلك ان ابن قتيبة يتناول من العصور مالا يتناوله ابن سلام . ولذا بلغ عدد التراجم في كتاب ابن قتيبة ستاً ومئتي ترجمة ، وهذا العدد يبلغ مثلي عدد التراجم في **طبقات الشعراء** .

ولهذا الكتاب ، كما لكتاب ابن سلام ، مقدّمة مسهبة لها مكانتها المرموقة بين آثار النقد الادبي عند العرب ؛ تحدّث فيها ابن قتيبة حديثاً رصيناً في الشعر وضروبه ، وفي المبادئ التي يجب أن يلزم الناقد بها نفسه حتى يكون عادلاً في حكمه ، وفي إطار القصيدة العربية وتتابع المعاني فيها ، وفي الطبع والتكلف ، وفي عيوب الشعر ، وما الى ذلك من الموضوعات التي لها شأنها في النقد الأدبي ، وقد كان لهذه المقدّمة أثرها البين في كثير مما كتب بعدها في هذا الباب .

كتاب الأغاني لابي الفرج الاصبهاني [١]

سبق أن أشرنا الى أن هذا الكتاب الثمين ليس قاصراً على تراجم الشعراء [٢] فهو في الحقيقة من أغنى الموسوعات الأدبية القديمة التي تعتز بها المكتبة العربية . ولكن هذا الكتاب، على غزارة مادته وتنوع موضوعاته، هو أوسع مصدر نملكه في تراجم شعراء العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري .

وغرض المؤلف الأول من كتابه إنما هو تثبيت أشهر أغاني عصره

---

(١) ابو الفرج الاصبهاني ، هو علي بن الحسين بن محمد القرشي ، من سلالة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية . والأصبهاني امام من أئمة الأدب في القرن الهجري الرابع ، ولد سنة ٢٨٤ هـ في اصبهان — ومن هنا لقبه — وقد توفي في بغداد سنة ٣٥٦ هـ ، على اختلاف في هذا التاريخ . أما كتاب (الاغاني) فقد طبع لاول مرة بالقاهرة في ٢٠ جزءاً ، وذلك بمطبعة « بولاق » سنة ١٢٨٥ هـ « ١٨٦٨م » ، ثم اكمله المستشرق « رودولف برونو » بطبعه الجزء الحادي والعشرين منه في سنة ١٢٠٦ هـ « ١٨٨٨م » بمدينة « ليدن » الهولاندية . وصنع المستشرق الطلياني « جويدي » وبعض معاونيه فهارس هجائية وافية لهذه الطبعة طبعت باللغة الفرنسية في مجلد ضخم سنة ١٣١٨ هـ « ١٩٠٠م » في مدينة « ليدن » ايضاً . ثم طبع (الاغاني) بعد ذلك طبعة ثانية في القاهرة بنفقة الحاج محمد الساسي وتم طبعه سنة ١٣٢٣ هـ وقد ظهرت هذه الطبعة الثانية في « ٢١ » جزءاً ، واضيف اليها الفهارس التي وضعها المستشرق « جويدي » وقد بدأت دار الكتب المصرية عام ١٩٢٧ م بطبع الكتاب للمرة الثالثة طبعة انيقة مصححة ، ولكن هذه الطبعة لم تنته بعد .

(٢) انظر ص ١٤٤ من هذا الكتاب

بكلماتها وألحانها . فقد كان الخليفة الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) أمر بعض مغني عصره أن يصطفوا له من بين الاغاني المشهورة مئة اغنية أو صوت. ولما تولى الخلافة حفيده الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) طلب الى اسحق بن ابراهيم الموصلي، اشهر مغني ذلك العصر، أن يعيد النظر في هذه الاصوات المئة . وكانت نقطة الانطلاق في كتاب ابي الفرج تثبيت هذه الاصوات بتقييد كلماتها وألحانها ، وذكر اسماء ملحنيها وشعرائها . ومن هنا العنوان الذي اختاره لكتابه . ولكن قيمة الكتاب الموسيقية لا تكاد في الحقيقة تذكر إلى جانب ما انطوى عليه من ثروة أدبية كبيرة . ذلك أن أبا الفرج كان إذا ذكر صوتاً من الاصوات أسهب في ترجمة الشاعر الذي اختير هذا الصوت من شعره كما أسهب في ترجمة المغني الذي وضع لحنه . وقد يتفق أن يكون الشعر منسوباً لأكثر من شاعر واحد ، أو أن يكون قد وضع له أكثر من لحن واحد ، فلا يتردد أبو الفرج في ذكر تراجم كل الشعراء الذين ينسب اليهم هذا الشعر وكل المغنين الذين تعزى اليهم تلك الالحان . كما ان الكلام على صوت من الاصوات وعلى ملحنه كثيراً مايستدعي ذكر اصوات أخرى عرف بها هذا الملحن ، فلا يتردد المؤلف في ذكر اخبار الشعراء الذين تنسب اليهم تلك الاصوات . وهكذا غدا الكتاب سجلا ضخماً لتراجم أعلام الشعر والغناء في عصر أبي الفرج والعصور التي سبقته ، كما غدا سجلاً للحضارة العربية والاسلامية في كثير من مظاهرها .

وليس يعنينا كتاب الأغاني في بحثنا هذا إلاّ من حيث كونه مصدراً من مصادرنا الهامة في تراجم الشعراء[١]. ففي هذا الكتاب مايقرب من خمسمئة ترجمة لخمسمئة شاعر وشاعرة عاشوا في الجاهلية وصدر الاسلام والعصر العباسي الأول. وجلّ هذه التراجم شديدة التفصيل غزيرة المادة تحتوي على قسط وافر من أخبار الشعراء المترجم لهم ومن آثارهم. بل إن بين هذه التراجم ما لو أفرد عن الكتاب لجاء كتاباً مستقلاً بنفسه.

وكان أبو الفرج الأصبهاني يجمع بين سعة الرواية والحذق في الدراية، كما كان معروفاً بحسن استيعاب مايتصدى لجمعه.[٢] فكان يروي مايروي في كتابه مرفقاً بالأسانيد المطوّلة، كما كان يشير إلى مصادره المكتوبة في كثير من الأحيان. وكان أكثر تعويله في تصنيفه على الكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها من الأصول الجياد، كما يذكر ابن النديم في **الفهرست**[٣]، وكلّ من تصفح هذا الكتاب الجليل لابدّ مقدّر مابذل في تصنيفه من جهود، ومقتنع بأن مؤلفه لم يكن يغالي كثيراً حين زعم أنه

---

(١) هنالك دراسات تناولت كتاب الاغاني بالتفصيل، منها كتاب « دراسة الاغاني » للاستاذ شفيق جبري عميد كلية الآداب بدمشق، طبع في دمشق عام ١٩٥١. وكتاب (ابو الفرج الاصفهاني وكتابه الاغاني)، لمحمد عبد الجواد الاصمعي، نشرته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥١ ايضا.

(٢) معجم الادباء : ج ١٣، ص ٩٥

(٣) الفهرست: ص ١٦٧.

أنفق خمسين عاماً من حياته في جمع مادة كتابه . ولاشكّ أن أبا الفرج قد صدر في كتابه هذا عن كلّ ما ألف قبله في الشعر والشعراء . وكثير من المصنفات التي صدر عنها أبو الفرج واستقطرها في أغانيه قد فقدت اليوم . ولاريب في أن وصول **الأغاني** بتمامه إلينا يخفف من أسفنا الشديد على فقد هذه المصنفات. ذلك أن أبا الفرج عرف كيف يصهر في كتابه الرحب أثمن معارف عصره الادبية ، بعد أن استقاها من عشرات الكتب. وهذا معنى ما رُوي من أن الكاتب والوزير البويهي المشهور الصاحب ابن عباد، الذي كان مولعاً باقتناء الكتب حتى اجتمع منها في خزانته مالم يجتمع عند غيره ، كان اذا سافر استصحب معه من الكتب مايحمل على ثلاثين جملاً ، فلما وصل اليه كتاب الاغاني استغنى به عنها .

وروى ياقوت في اخبار ابي الفرج [١] أن الصاحب بن عبّاد هذا لما علم أن سيف الدولة بن حمدان كافأ أبا الفرج على كتابه الأغاني بألف دينار قال : « لقد قصّر سيف الدولة ! وانه يستأهل أضعافها . ولقد اشتملت خزائني على مئتين وستة آلاف مجلد مامنها ماهو سميري غيره ، ولا راقني منها سواه . »

وبين الفهارس الكثيرة التي صنعها المستشرق (جويدي) للكتاب ، فهرس بأسماء الشعراء الذين ورد ذكرهم فيه. وهذا الفهرس يهدي المراجع

---

(١) معجم الادباء ج ١٣ ، ص ٩٧

بسهولة الى التراجم التي يبحث عنها .

معجم الشعراء للمرزباني [١] والمؤتلف والمختلف للآمدي: [٢]

وهذان كتابان آخران من الكتب المصنفة في تراجم الشعراء خلال القرن الهجري الرابع . وقد ذكرناهما معاً ، وإن اختلف مؤلفاهما ، لأنهما في طبعتهما الوحيدة التي بين أيدينا منهما ، قد نشرا معاً في مجلّد واحد . [٣]

أما معجم الشعراء فهو ، كما يفهم من عنوانه ، معجم رتبت فيه أعلام الشعراء على الحروف الهجائية ، مع مراعاة أوائل الاسماء وصرف النظر عن الألقاب والكنى. وقد حاول المرزباني في هذا المعجم الأول من نوعه بين كتب تراجم الشعراء أن يستقصي ذكر الشعراء قاطبةً ، مشهورهم ومغمورهم ، مكثرهم ومقلهم ، حتى ضمنه مالا يقل عن خمسة آلاف اسم كما يذكر ابن النديم . [٤] ولكن الذي يؤسف له ان هذا المعجم القيم لم

---

(١) هو ابو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني ، أحد المؤرخين الادباء في القرن الرابع ، توفي في بغداد سنة ٣٨٤هـ. وهو صاحب كتاب « الموشح » المشهور.

(٢) هو ابو القاسم الحسن بن بشر الآمدي الاديب الناقد المعروف صاحب كتاب « الموازنة بين ابي تمام والبحتري » توفي سنة ٣٧٠ هـ.

(٣) طبع الكتابان في جزء واحد نشرته مكتبة القدسي بالقاهرة عام ١٣٥٤ هـ باشراف المستشرق (كرنكو)

(٤) انظر الفهرست: ص ١٩٢

يصلنا بتمامه ؛ إذ لم يعثر الباحثون إلا على قسمه الأخير الذي يتضمن أسماء الشعراء من حرف العين ـ مادة : عمرو ـ حتى آخر الحروف الهجائية . ولو أن هذا الكتاب وصلنا بتمامه لكان أوفى سجل نرجع إليه للبحث عن أسماء شعراء العربية من أقدم العصور حتى نهاية القرن الهجري الثالث .

وأما **المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم** فهو أيضاً معجم لأعلام الشعراء مرتب على الحروف الهجائية ؛ إلا أن الآمدي جمع فيه أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم في زمر يسهل معها بيان ما كان منها مؤتلفاً ، او مختلفاً ، أو متقارباً في اللفظ ، أو متشابهاً في الرسم . فالاسم الواحد كثيراً ما يؤلف بين عددٍ من الشعراء . فما أكثر من يسمى من الشعراء بامرئ القيس أو بالشماخ ! وما أكثر من يلقب منهم بالأعشى أو النابغة ! وقد جهد الآمدي أن يعرّف كلاً من هؤلاء الشعراء الذين ائتلفت اسماؤهم حتى لا يختلط أمرهم على الباحث . كما أن هنالك كثيراً من الأسماء أو الألقاب تتقارب في اللفظ أو في الخط فلا يفرّق بينها إلا الشكل أو النقط . فبين الشعراء يزيد وبريد ، والأشعر والأسعر ، وسهم وشهم ، وجرير وحريز ، والبعيث والنعيت ، وخبّاب وجناب ، والأغرّ والأعزّ ..... ولا شك أن مثل هذه الأسماء والألقاب المتقاربة في حاجة إلى تمييز وإيضاح حتى لا تلتبس على الباحث أو القارئ ؛ اذ أنها أكثر تعرّضاً من سواها لخطر التصحيف . وقد جمع الآمدي في كتابه هذا كل اسم أو لقب مشهور مع ما يشابهه لفظاً أو رسماً من الأسماء

والألقاب ، ثم ميّز بين أصحاب هـذه الأسماء ذاكراً نسب كلّ منهم وطرفاً من أخباره وشعره .

ولا بدّ من الاشارة هنا إلى أن التراجم في هذين الكتابين مقتضبة جداً لا تنقع الغلّة . ذلك أننا هنا أمام معاجم غايتها الأولى تقصّي أسماء الشعراء وضبط ألقابهم وكناهم على اختلاف طبقاتهم وأقدارهم ، ولسنا أمام كتب خصصت بالشعراء المشهورين وحدهم .

بتيمة الدهر للثعالبي : (١)

هذا الكتاب يختلف عن الكتب السابقة بكونه مقصوراً على شعراء عصر معين ، هو عصر المؤلف ، أي : القرن الهجريّ الرابع . وتأليف هذا الكتاب الضخم في ذلك العصر ، إن دلّ على شيء ، فعلى اهتمام الأوساط الأدبية آنذاك بالشعر المحدث والشعر المعاصر ، بعد أن كانت أنظار المصنفين من قبل تتجه أكثر ما تتجه إلى العناية بالقدماء قبل سواهم (٢) .

---

(١) سبقت ترجمة الثعالبي في ص ٥٨ ، حاشيه «١» ، اما اليتيمة فقد طبعت للمرة الاولى في دمشق سنة ١٣٠٣ هـ . ثم طبعت بعد ذلك في مصر مرتين الاولى سنة ١٣٥٢ هـ «١٩٣٥م» بتحقيق محمد اسماعيل الصاوي ، والثانية سنة ١٣٦٦هـ ١٩٤٧م بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

(٢) لايفوتنا هنا أن نذكر أن الثعالبي لم يكن أسبق المصنفين الى الاهتمام بالشعراء =

وقد قصّ علينا الثعالبي في مقدمة كتابه الأسباب التي حملته على تأليف كتابه هذا ، وبين المراحل التي مرّ بها كتابه فقال ما خلاصته : « وقد سبق مؤلفو الكتب إلى ترتيب المتقدمين من الشعراء والمتأخرين، وذكر طبقاتهم ودرجاتهم، وتدوين كلماتهم، والانتخاب من قصائدهم ومقطوعاتهم.. وبقيت محاسن أهل العصر التي معها رواء الحداثة ، ولذة الجدّة ،وحلاوة قرب العهد ، وازدياد الجودة على كثرة النقد ، غير محصورة بكتاب يضمّ نشرها . . . وقد كنت تصدّيت لعمل ذلك في سنة أربع وثمانين وثلثمئة، والعمر في إقباله ، والشباب في نمائه . . . فارتفع كعجالة الراكب وقبسة العجلان. وقضيت به حاجةً في نفسي. وأنا لا أحسب المستعيرين يتعاورونه، والمنتسخين يتداولونه . حتى يصير من أنفس ما تشحّ عليه أنفس الأدباء والإخوان ، وتسير به الركبان إلى أقاصي البلدان ... فقلت : إن كان لهذا الكتاب محلّ من نفوس الادباء ، وموقع من قلوب الفضلاء ، فيما لم يقرع من قبل آذانهم ولم يصافح أذهانهم، فلم لا أبلغ به المبلغ الذي يستحق حسن الإجماد ...؟ ولم لا أبسط فيه عنان الكلام ... ؟ إلى أن أدركت عصر السنّ والخنكة ، وشارفت أوان الثبات والمسكة . فاختلست لمعةً من

=المحدثين والمعاصرين . ولعل ابن المعتز كان اسبق الادباء الى العناية بهم حين ألف كتابه « طبقات الشعراء المحدثين » في اواخر القرن الهجري الثالث . وقد طبع هذا الكتاب في لندن سنة ١٩٣٩ م.

ظُلم الدهر . وانتهزت رقدةً من عين الزمان ... واستمررت في تقرير هذه النسخة الأخيرة وتحريرها من بين النسخ الكثيرة ، بعد ان غيّرت ترتيبها وجدّدت تبويبها ... فهذه النسخة الآن تجمع من بدائع أعيان الفضل ، ونجوم الأرض من أهل العصر ، ومن تقدمهم قليلاً وسبقهم يسيراً ، ما لم تأخذ الكتب العتيقة غرره . »

واضح من هذا الكلام أن الثعالبي ألف كتابه ، في نسخته الأولى ، سنة ٣٨٣ هـ . وكان إذ ذاك في الرابعة والثلاثين من عمره . ولما رأى إقبال المتأدبين على كتابه ـ وهو ما لم يكن يتوقع ـ حمله ذلك على إعادة النظر في كتابه بعد أن تقدمت به السنّ ، فحرّر إذ ذاك النسخة الأخيرة من الكتاب ، بعد أن زاد في النسخة الأولى ، ونقص منها ، وغيّر ترتيبها وتبويبها . وأغلب الظن أن هذه النسخة الأخيرة لم تظهر إلا في مطلع القرن الهجري الخامس .

وقد قسم الثعالبي كتابه إلى أربعة أقسام بحسب أقاليم الممالك الإسلامية في عصره . فخصّ القسم الأول بشعراء الشام ومصر والمغرب والأندلس ، والقسم الثاني بشعراء العراق ، والقسم الثالث بشعراء فارس ، والقسم الرابع والأخير بشعراء خراسان وما وراء النهر . وقد بدأ حديثه في الكتاب بالكلام على شعراء الشام لأنه كان يرى أن شعراء هذا القطر قد فضلوا سواهم من شعراء الاقطار الأخرى في القديم والحديث

لأسباب يعدّدها.[1]

وتختلف تراجم اليتيمة عن تراجم الكتب الأخرى بطغيان الأشعار المختارة فيها على أخبار الشاعر وتفاصيل حياته؛ حتى ليمكن اعتبار هذا الكتاب مجموعة مختارة من آثار شعراء القرن الرابع لا كتاباً في تراجمهم. وتختلف تراجم اليتيمة فيما بينها طولاً وقصراً. فهناك تراجم غنية ومطولة لعدد من كبار شعراء القرن الرابع وادبائه المرموقين كأبي فراس الحمداني وابي الفرج الببغاء، والسريّ الرفاء، وأبي إسحق الصابي، وابن الحجاج، وابن العميد، والصاحب بن عباد، والخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني وأبي الفتح البستي، وابي الفضل الميكالي، وغيرهم. بل إن بعض تراجم الكتاب تكاد تبلغ أحياناً مئة صفحة، كما هي الحال مثلا في ترجمتي المتنبي والصاحب بن عبّاد. وإلى جانب هذه التراجم المطوّلة الخصبة تراجم قصيرة لا تتجاوز الصفحة الواحدة أو الصفحات القليلة. وفي رأينا أن قيمة

---

(١) يقول الثعالبي: والسبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً على سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولاسيما اهل الحجاز، وبعدهم عن بلاد العجم، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لالسنة اهل العراق، لمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم اياهم. ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة، ورزقوا ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبني ورقاءهم بقية العرب والمشغوفون بالادب، والمشهورون بالمجد والكرم، والجمع بين ادوات السيف والقلم، وما منهم الا اديب جواد يحب الشعر وينتقده، ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل، انبعثت قرائحهم في الاجادة، فقادوا محاسن الكلام بألين زمام، وابدعوا ماشاءوا.

الكتاب الحقيقية ليست في تلك التراجم المطوّلة لمشاهير الشعراء والأدباء، إذ أن أخبار هؤلاء وآثارهم معروفة ومشهورة يمكن الاطلاع عليها في دواوينهم وفي معظم كتب الأدب. ولكن قيمة الكتاب إنما هي في مئات التراجم القصيرة التي ينطوي عليها لأولئك الشعراء الأوساط أو المغمورين الذين عاشوا في القرن الهجري الرابع في مختلف بقاع العالم الاسلامي الفسيح. فلولا يتيمة الدهر لفقدت معظم أخبار هؤلاء وآثارهم ولما عرفنا عن كثير منهم شيئاً يذكر.

ومجمل القول إن المتصفح لكتاب **يتيمة الدهر** يخرج من قراءته إياه بصورة حية كاملة للحياة الأدبية عامة، والشعرية خاصة، خلال المئة الرابعة. ومثل هذه الصورة تنقصنا مع الأسف للعصور السابقة، ذلك أن المصنفين قبل الثعالبي كانوا في الغالب يعنون بالقدماء أكثر من معاصريهم. ولابدّ لتثبيت صورة الحياة الأدبية في عصر من العصور من أن ينهض بصنعها أحد أبنائه، قبل أن يتأكل النسيان جوانب ذلك العصر ويغطي بصدئه على كثير من ملامح الحياة فيه.

وقد لاقت طريقة الثعالبي هذه، التي تقوم على العناية بالشعر المعاصر، قبولاً لدى عدد من الأدباء والمصنفين الذين جاءوا بعده، فحاولوا أن يطبعوا على غراره. فكان لنا من جرّاء ذلك عدد من المصنفات تؤلف وكتابَ الثعالبي سلسلةً متتابعة الحلقات. مثل كتاب **دمية القصر**

للباخرزي [١]، وكتاب زينة الدهر للحظيري [٢]، وكتاب خريدة القصر للعماد الكاتب [٣]. وهذه العناوين المصبوبة في قالب واحد، تكفي دليلاً على إعجاب مؤلفي هذه الكتب بالثعالبي وحرصهم على ترسم خطاه في كتابه.

---

(١) هو ابو الحسن علي بن الحسن الباخرزي، نسبة الى باخرز - بفتح الخاء وسكون الراء - ناحية من نواحي نيسابور. والباخرزي أحد الشعراء الادباء في القرن الهجري الخامس، توفي سنة ٤٦٧ هـ. وكتابه «دمية القصر وعصرة أهل العصر» يحتوي على تراجم عدد كبير من شعراء أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس. وقد نشرت «الدمية» في حلب سنة ١٣٤٨ هـ «١٩٣٠ م» بتحقيق محمد راغب الطباخ. والكتاب مقسم الى اقسام بحسب اقاليم الممالك الاسلامية على طريقة تشبه طريقة الثعالبي الى حد كبير.

(٢) هو ابو المعالي سعد بن علي بن القاسم الحظيري البغدادي المعروف بالوراق دلال الكتب. كان اديباً وشاعراً رقيق الشعر، توفي سنة ٥٦٨ هـ. ألف كتاباً سماه «زينة الدهر في لطائف شعراء العصر» ذيل به دمية القصر للباخرزي والكتاب مفقود.

(٣) هو عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الكاتب الاصبهاني، كاتب صلاح الدين الايوبي، مؤرخ وأديب وشاعر معروف. ولد في اصبهان سنة ٥١٩ هـ وتوفي في دمشق سنة ٥٩٧ هـ. كان كتابه المشهور «خريدة القصر وجريدة العصر» مخطوطاً الى أمد قريب. وفي عام ١٩٥٢ طبع القسم المتعلق منه بشعراء مصر في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة في جزأين، واشرف على نشر هذا القسم الاساتذة احمد امين وشوقي ضيف واحسان عباس. ويقوم الآن المجمع العلمي العربي بدمشق بنشر القسم المتعلق منه بشعراء الشام باشراف الدكتور شكري فيصل.

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام [١]:

لم تقتصر شهرة اليتيمة على المشرق بل سرعان ماتجاوزته إلى المغرب. وليس كتاب **الذخيرة** لابن بسّام سوى محاولة أندلسية للنسج على منوال الثعالبي . وقد سبق لنا ان أشرنا إلى حرص الأندلسيين على مجاراة المشارقة في كل مضمار . [٢] وكما أن ابن عبد ربه ترسّم في **العقد الفريد** آثار ابن قتيبة في **عيون الأخبار** ، كذلك نهج ابن سلام نهج الثعالبي لينبّه من شأن معاصريه الأندلسيين . وكما جعل الثعالبي كتابه في أربعة أقسام بحسب أقاليم المملكة الاسلامية ، كذلك جعل ابن بسام كتابه في أربعة أقسام ؛ فخصّ ثلاثة منها بأدباء الأقاليم الأندلسية الثلاثة : المتوسط والغربي والشرقيّ ، ووقف القسم الرابع على الأدباء الوافدين على الاندلس وعلى أدباء افريقية والمشرق .

يبدأ ابن بسام مقدّمة كتابه بالاشارة إلى ولوع الاندلسيين بأدب المشارقة « حتى لو نعق بتلك الآفات غراب ، أوطنّ بأقصى الشام والعراق

---

(١) هو ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، احد ادباء الاندلس في القرن السادس توفي سنة ٥٤٢ هـ . اما كتاب « الذخيرة » فقد شرعت لجنة جامعية من كلية الآداب بالقاهرة بالاشراف على تحقيقه وطبعه في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٩م. ولكن الكتاب لم يصدر منه مع الاسف حتى اليوم سوى ثلاثة اجزاء من اصل ثمانية

(٢) انظر ص ١٣٥ من هذا الكتاب.

ذباب ، لجثوا على هذا صنماً ،وتلوا ذلك كتاباً محكماً . » هذا، بينما يهمل هؤلاء الأندلسيون أدبهم وأدباءهم . ويغيظ ابن بسام موقف مواطنيه هذا فلا يرى بداً من أن يأخذ نفسه بتتبع محاسن أهل بلده وعصره «غيرةً لهذا الافق الغريب أن تعودَ بدوره أهلّةً ، وتصبح بحاره ثماداً مضمحلة، مع كثرة أدبائه ووفور علمائه .... وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان ، وخصّ أهل المشرق بالاحسان ؟ »وهكذا يؤلف ابن بسام كتابه الذخيرة ويجعله قاصراً على أدباء عصره ، فلا يذكر منهم إلا من أدركه بنفسه أو أدركه بعض معاصريه .(١)

ويشير ابن بسام في مقدمة كتابه إلى الخطة التي اتبعها في تصنيفه ، وإلى أسماء الشعراء والكتاب الذين سيجعلهم موضع حديثه في كل قسم من أقسامه، وينهي كلامه في ذلك قائلا : « وانما ذكرت هؤلاء ائتساءً بأبي منصور في تأليفه المشهور المترجم بيتيمة الدهر في محاسن أهل العصر . » وهكذا يصرح ابن بسام بتأثره خطا الثعالبي .

والذخيرة أوفى مرجع نملكه في تراجم شعراء الأندلس وأدبائه من

---

(١) يقول ابن بسام في مقدمة الذخيرة : « وقد كتبت لارباب هذا الشأن من اهل الوقت والزمان محاسن تبهر الالباب وتسحر الشعراء والكتاب .ولم اعرض بشيء من اشعار الدولة المروانية والمدائح العامرية ، ولاتعديت اهل عصري ممن شاهدته بعمري او لحقه اهل دهري .»

أواخر القرن الهجري الرابع حتى اوائل القرن السادس [١]. وتراجم الكتاب مسهبة وجدّ غنية بالأخبار والمختارات. ومن المؤسف حقاً ان يبقى هذا السفر القيم حتى اليوم بعيداً عن متناول الباحثين في معظم أقسامه.

ب — الكتب المصنفة في تراجم اللغويين والنحاة

لقي اللغويون والنحاة من عناية مصنفي التراجم مالقيه الشعراء؛ فألفت الكتب العديدة في أخبارهم وتعداد آثارهم وبيان مذاهبهم. واتجه المؤلفون أيضاً في تصنيف تراجم هذه الفئة من العلماء وجهات مختلفة. فمنهم من نهج في تأليفه نهجاً زمنياً، ومنهم من أخذ بعين الاعتبار المواطن التي نشأ فيها هؤلاء العلماء، ومنهم من ذهب في التأليف مذهباً معجمياً فرتب التراجم على حروف المعجم.

---

(١) هنالك مراجع كثيرة اخرى يستطيع الباحث ان يعتمدها في مراجعة تراجم شعراء الاندلس وادبائه، من اشهرها كتابا «قلائد العقيان» و«مطمح الانفس» لمؤلفهما الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان الاندلسي المتوفى سنة ٥٢٩ هـ. والكتابان في تراجم اعيان الاندلس عامة في القرن الخامس، من امراء ووزراء وقضاة وعلماء وادباء وشعراء. ويمكن اعتبار ثانيهما متمما للأول. وهناك ايضاً كتاب «نفح الطيب» لاحمد بن محمد المقري المتوفى سنة ١٠٤١ هـ، وهو موسوعة ادبية ضخمة، استعرض فيها مؤلفها تاريخ بلاد الاندلس وادبها من الفتح حتى خروج العرب منها، والقارئ يجد كثيراً من تراجم شعراء الاندلس مبثوثة هنا وهناك في هذا الكتاب الجميل. وهذه الكتب الثلاثة مطبوعة.

واسنا نعرف على وجه اليقين أول من تصدّى للتأليف في هذا الباب . غير أن من أقدم ما يذكره المؤرخون في هذا الموضوع كتاباً لأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد المتوفي سنة ٢٨٦ هـ عنوانه **طبقات النحويين البصريين وأخبارهم** . وفي القرن التالي تتوالى الكتب في هذا الموضوع ، فيؤلف ابن درستويه **أخبار النحويين** ، والسيرافي **طبقات النحاة البصريين** ، وأبو الطيب اللغوي **مراتب النحويين** والمرزباني **المقتبس في أخبار النحويين واللغويين** . ويتتابع المؤلفون في القرون التالية على تدوين تراجم النحاة واللغويين فيحاول كل منهم أن يمضي في الموضوع إلى أبعد من الغاية التي وصل اليها من قبله ، حتى يأتي الجلال السيوطي في أواخر القرن الهجري التاسع فيضع معجمه الجامع : **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** .

وقد فقد كثير من الكتب المؤلفة في هذا الموضوع . كما أن بعضها ما يزال حتى اليوم مخطوطاً . وسنكتفي هنا بذكر أربعة ننتقيها من بين أشهر الكتب المطبوعة في هذا الباب وهي : **طبقات النحويين واللغويين** لأبي بكر الزبيدي ، **ونزهة الالباء** للانباري ، **وانباه الرواة** للقفطي ، **وبغية الوعاة** للسيوطي .

طبقات النحويين واللغويين للزبيدي : (١)

هذا الكتاب من أقدم ماوصلنا في موضوعه . وقد ظهر في الأندلس

---

(١) هو ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الاندلسي الاشبيلي المتوفي سنة ٣٧٩هـ —

في أواسط القرن الهجري الرابع ، واستعرض فيه مؤلفه تراجم رجال اللغة والنحو من نشأة هذين العلمين حتى عصره ، أي خلال ثلاثة قرون تقريباً . وقد بنى المؤلف خطة كتابه على الاسس التالية :

آ — تصنيف تراجم اللغويين والنحاة بحسب مواطنهم . فالكتاب من هذه الناحية مقسوم إلى خمسة أقسام بحسب الاقاليم الخمسة التالية : البصرة ، والكوفة ، ومصر ، وافريقية ، والاندلس . وتقسيم الكتاب على هذا النحو أمر ذو شأن نظراً الى اختلاف المذاهب باختلاف الامصار .

ب — تصنيف علماء كل مصر من هذه الامصار في طبقات يختلف عددها من مصر إلى آخر . ومفهوم الطبقات في هذا الكتاب زمني ، أي أن رجال كل طبقة يمثلون جيلاً من اجيال المشتغلين باللغة والنحو .

ح — الفصل بين علماء اللغة وبين علماء النحو . ولم ينح الزبيدي هذا النحو إلا في تراجم البصريين والكوفيين . أما في تراجم علماء الامصار الأخرى فقد مزج بين الفريقين . ولعل المزج والتوحيد في هذا الباب أصوب لما بين هذين العلمين من اتصال وتعاون ، ولأنه قل أن تجد عالماً

من علماء عصره في النحو واللغة . درس على ابيه وعلى جماعة من مشايخ عصره منهم ابو علي القالي . وقد سبق ان اشرنا ص ٢١ حاشية ١ الى ان الزبيدي وضع مختصراً لكتاب العين . اما كتابه « طبقات اللغويين والنحويين » فقد سبق المستشرق كرنكو ان نشر مختصره سنة ١٩١٩ م . وقد طبع هذا الكتاب للمرة الاولى كاملا سنة ١٩٥٤ بمطبعة السعادة بمصر ، بتحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم .

استقلّ بأحد العلمين تماماً فلم تكن له مشاركة في العلم الثاني البتة .

والتراجم في هذا الكتاب مختلفة القيمة ، فهي أحياناً ملأى بالأخبار ذات الدلالة القيمة ، وأحياناً اخرى في غاية الفقر . ولكن يجب ألاّ ننسى أن مجرّد ذكر أحد اللغويين في طبقة معينة كافٍ للدلالة على موطنه ومذهبه وعصره على وجه التقريب .

وإذا كان لابدّ من الاشادة بفضل الزبيدي في تصنيف هذا الكتاب فمن العدل أيضاً أن نشيد بفضل الخليفة الاموي الحكم المستنصر بالله الذي كان الباعث للزبيدي على تأليف هذا الكتاب والراسم لخطته ، كما كان هو وأبوه الناصر الباعثين لأبي علي القالي أستاذ الزبيدي على تأليف امالية (١) .

---

(١) يقول الزبيدي في مقدمة كتابه « ص ٩ ـ ١٠ » : « وان امير المؤمنين الحكم المستنصر ـ رضي الله عنه ـ لما اختصه الله به ومنحه الفضيلة فيه من العناية بضروب العلوم والاحاطة بصنوف الفنون ، امرني بتأليف كتاب يشتمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين في صدر الاسلام . ثم من تلاهم من بعد ..... ، الى زماننا هذا ، وان اطبقهم على ازمانهم وبلادهم بحسب مذاهبهم في العلم ومراتبهم ، واذكر مع ذلك موالدهم واسنانهم ومدد اعمارهم وتاريخ وفاتهم على قدر الامكان في ذلك وبحسب الادراك له ... فألفت هذا الكتاب على الوجه الذي امرني به امير المؤمنين . »

نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، للانباري : [١]

هذا الكتاب ظهر في أواسط القرن الهجري السادس[٢] . وهو كتاب لطيف الحجم يحتوي على تراجم مايقرب من مئتي عالم من علماء اللغة والنحو ، من نشأة علم النحو حتى عصر المؤلف . والكتاب يبدأ بمقدمة في نشأة علم النحو في القرن الأول ، ثم تتوالى فيه تراجم اللغويين والنحاة مرتبة ترتيباً زمنياً عاماً بحسب سني وفاة أصحابها . ولم يصنف الانباري هؤلاء العلماء بحسب مواطنهم أو بحسب أجيالهم كما فعل الزبيدي قبله، وإنما اكتفى بالترتيب الزمني كما فعل ابن قتيبة في **الشعر والشعراء** . ويغلب على الظن أن الأنباري لم يطلع على كتاب الزبيدي، فهو لا يترجم له ولا يشير الى كتابه بين مصادره . ولو انه اطلع عليه لافاد من منهجه.

ومع هذا فإن كتاب الانباري خير متمم لكتاب الزبيدي، إذ أنه يتناول تراجم رجال اللغة والنحو حتى منتصف القرن السادس ، بينما يقف كتاب الزبيدي كما رأينا عند منتصف القرن الرابع .

---

(١) هو ابو البركات عبد الرحمن بن محمد عبد الله الانباري الملقب بالكمال النحوي. قرأ النحو على ابن الشجري واللغة على ابي منصور الجواليقي . من مصنفاته المشهورة « الانصاف في مسائل الخلاف بين نحاة الكوفة والبصرة ». اما كتابه « نزهة الالباء » فقد طبع في مصر سنة ١٢٩٤ هـ.

(٢) يدل على ذلك ان آخر ترجمة في الكتاب هي لاستاذ المؤلف ابي السعادات ابن الشجري المتوفى سنة ٥٤٢ هـ . وقد اشار الانباري الى تاريخ وفاة ابن الشجري مما يدل على انه الف كتابه بعد ذلك التاريخ.

انباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي :(١)

ظهر هذا الكتاب في القرن الهجري السابع . وقد نهج مؤلفه في تصنيفه نهجاً معجمياً ، فرتب تراجمه على حروف أسماء أصحابها كما فعل المرزباني في **معجم الشعراء** . وقد جهد المؤلف أن يستقصي في كتابه هذا أخبار اللغويين والنحويين الذين عاشوا في مختلف اقاليم العالم الاسلامي من عصر ابي الأسود الدؤلي حتى القرن الهجري السابع . واستعان على تحقيق غايته بكنوز مكتبته ، اذ ان القفطي كان شديد الشغف باقتناء الكتب يرتخص في سبيل الحصول عليها كلّ غال ونفيس .

وقد بدأ القفطي كتابه ، كما فعل غيره ممن الف في هذا الباب ، بمقدمة في مبدإ علم النحو ، ردّد فيها الاخبار التي تعوّد المؤرخون ترديدها في هذا الصدد . وقد حمله ذلك على أن يقدم ترجمتي علي بن أبي طالب وأبي الاسود الدؤلي على تراجم غيرهما ، لما لهما من صلة بموضوع نشأة علم العربية .

---

(١) هو القاضي الاكرم الوزير جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم الشيباني القفطي نسبة الى قفط : بلدة مصرية ـ . ولد سنة ٥٦٨ هـ وعاش صدر حياته في القاهرة وبيت المقدس . ثم قضى بقية حياته كاتباً ووزيرا للايوبيين في حلب ، حيث توفي سنة ٦٤٦ هـ . له مؤلفات كثيرة في التاريخ والادب . اما كتابه « انباه الرواة في انباه النحاة » فقد شرعت دار الكتب المصرية بطبعه عام ١٩٥٠ م بتحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . وقد ظهر منه حتى اليوم جزآن يحتويان على تراجم النحاة من حرف الهمزة حتى حرف العين .

والكتاب بمجموعه شاهد على حسن إلمام المؤلف بما صنف قبله في التراجم ، وعلى شديد اتصاله بالاوساط العلمية والادبية في عصره . وفيه معلومات كثيرة انفرد بها لفقدان الأصول التي استقاها منها .

أما من حيث ترتيب تراجم الكتاب فإن الاستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ، محقق الكتاب ، يأخذ عليه عدم الدقة في ترتيبه ، « فهو يذكر مثلاً **ابراهيم بن عبد الله** قبل **ابراهيم بن اسحاق** ؛ و **الخليل بن احمد** قبل **خلف بن محرز** ، ومثل هذا كثير . وقد صرّح المؤلف بأن الترتيب لم يكن من عمله بل من عمل الناسخ . » ويأخذ عليه محققه أيضاً « أنه كرر بعض التراجم بأسماء مختلفة . » ولكن الكتاب يبقى على الرغم من هذه الشوائب مثلاً جميلاً من أمثلة تلك الكتب الحصبة الجامعة التي زوّدنا بها علماء القرنين السابع والثامن .

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي :[1]

عكف السيوطي ، وهو في العشرين من عمره ، على تأليف كتاب يجمع أخبار النحويين ، بعد أن رأى أن الكتب التي صنفت من قبل في هذا الموضوع — على كثرتها — غير وافية بالغرض . فعمد من أجل تحقيق غرضه هذا إلى البحث عن مادته في جميع مظانها . وإن القارئ لكتاب **البغية** ليدهش حقاً لذلك الثبت الطويل الذي صدّر به السيوطي كتابه

---

(١) هو جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي . كان من اوسع —

وذكر فيه أسماء مصادره بالتفصيل . فهو لم يترك كتاباً من كتب التراجم والأدب والاخبار إلا وقف عليه . ويقول السيوطي في مقدمة كتابه بعد أن يعدّد مصادره الكثيرة : « فجمعت كلّ ماتضمنته هذه الكتب المذكورة من ترجمة نحوي، طالت او قصرت ، خفيت أخباره أو اشتهرت، وأوردت من فوائدهم وأخبارهم ومناظراتهم وأشعارهم ومروياتهم ومفرداتهم ما لا يجمع في كتاب ؛ بحيث بلغت المسوّدة سبع مجلدات . فلما حللت بمكة المشرفة سنة تسعٍ وتسعين [١] وقفت عليها صديقنا الحافظ نجم الدين بن فهد جزاه تعالى أحسن الجزاء ، وحباه أبلغ الحباء ، فأشار عليّ بأن ألخص منها طبقات في مجلّدة تحتوي على المهم من التراجم ، وتجري مجرى ما ألفه الناس من المعاجم . فحمدت رأيه ،وشكرت لذلك سعيه ، ولخصت منها اللباب في هذا الكتاب . »

فالكتاب الذي بين أيدينا اليوم هو إذاً خلاصة لكتاب واسعٍ جداً في موضوعه .وهذا ما يفسرّ لنا اختصار التراجم فيه واقتصارها في أغلب

= علماء عصره ثقافة وأخصبهم آثاراً . صنف ما يزيد على ٥٠٠ كتاب في القرآن والحديث واللغة والنحو والأدب والتاريخ وغير ذلك من فروع الثقافة الاسلامية ، وتوفي في القاهرة سنة ٩١١ هـ وهو لم يتجاوز الثالثة والستين من عمره . أما كتابه (بغية الوعاة) فقد طبع بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٦ هـ .

(١) أي سنة ٨٩٩ هـ . وذلك بعد ثلاثين سنة من شروعه بتأليف الكتاب ، إذ أن السيوطي يذكر في مقدمة كتابه أنه جرّد همته لجمع مادة كتابه سنة ٨٦٨ هـ .

الأحيان على ذكر اسم العالم، وتاريخ وفاته، وأسماء أساتذته وتلامذته، وعناوين مصنفاته . وقد يورد المؤلف أحياناً نتفاً من أخبار من يترجم لهم وآرائهم المشهورة ، ولكنه في كل ذلك يلزم جانب الايجاز الشديد .

وقد اتبع السيوطي في ترتيب تراجم كتابه المنهج المعجمي أيضاً فرتبها على الحروف، إلا أنه بدأ بذكر المحمدين والاحمدين قبل البدء بحرف الهمزة ، إجلالاً للرسول العربي الكريم المسمّى بهذين الاسمين.

والكتاب بعد ملخّصٌ ومتمم لجميع ما ألف قبله في تراجم اللغويين والنحاة . ولا بد للباحث من الاعتماد عليه في مراجعاته ، وخاصة إذا لم يعثر على مراده في الكتب الاخرى التي ذكرناها قبله .

ج ـــ الكتب المصنفة في تراجم الادباء عامة

معجم الأدباء لياقوت : (١)

أشار ياقوت في مقدمة كتابه إلى أولئك الذين نظمهم في سلك

---

(١) عنوان الكتاب الأصلي : **إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب** . ولكنه اشتهر بمعجم الأدباء اختصاراً ، ولكون هذا الاسم مناظراً لاسم كتاب آخر مشهور للمؤلف نفسه هو : معجم البلدان . ومؤلف هذين الكتابين هو أبو عبد الله الرومي الحموي ، من أعلام التأليف في القرنين السادس والسابع . أصله من الروم ، وكان مولى لتاجر بغدادي اسمه (عسكر الحموي) ، ومن هنا لقبه الثاني (الحموي) .=

الأدباء وعُني بذكر تراجمهم في كتابه فقال : « وجمعت في هذا الكتاب ما وقع إليّ من أخبار النحويين واللغويين، والنسابين، والقرّاء المشهورين والاخباريين ، والمؤرخين ، والورّاقين المعروفين ، والكتاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدوّنة ، وارباب الخطوط المنسوبة والمعيّنة ، وكلّ من صنف في الأدب تصنيفاً ، أو جمع في فنّه تأليفاً . مع إيثار الاختصار والإعجاز ، في نهاية الايجاز . ولم آل جهداً في إثبات الوفيات ، وتبيين المواليد والأوقات ، وذكر تصانيفهم ومستحسن أخبارهم ، والاخبار بأنسابهم وشيءٍ من أشعارهم . فأما من لقيته أو لقيت من لقيه فأورد لك من أخباره وحقائق أموره مالا أترك لك بعده تشوفاً إلى شيءٍ من خبره ما أدت الاستطاعة إليه ، ووقفني النقل عليه في ترادي الى البلاد ومخالطتي العباد . »[1] .

ومن المؤسف أن هذا الكتاب لم يتضمن تراجم الشعراء . اللهم إلا من عُرف إلى جانب الشعر بالتصنيف والتأليف ، كأبي العلاء المعرّي ،

=وقد رباه مولاه وثقفه ثقافة حسنة وشغله بالاسفار في متاجره . فأفاد ياقوت كثيراً من هذه الأسفار . وبعد موت سيده ثابر بنفسه على الترحّل والدراسة والتأليف إلى أن توفي في حلب سنة ٦٢٦ هـ وهو في الخمسين من عمره . وقد طبع (إرشاد الأريب) لأول مرة في أوروبا في ٧ مجلدات باشراف المستشرق الانجليزي مرجليوث بين سنتي ١٩٠٧ و ١٩٢٦م. وطبع الكتاب أيضاً في مصر في ٢٠ جزءاً بين سنتي ١٩٣٦ و ١٩٣٨ باشراف الدكتور أحمد فريد الرفاعي (مطبوعات دار المأمون) .

(١) معجم الأدباء ج ١ ، ص ٤٨ – ٤٩

والبحتري ، وابن عبدربه الأندلسي وغيرهم. أما الشعراء الذين لم يعرفوا إلا بقول الشعر ، ولم يتركوا من الآثار سوى دواوينهم ، فلم يأت ياقوت في **معجم الادباء** إلا على ذكر عدد قليل منهم . ويعود السبب في ذلك الى أن المؤلف قد صنّف كتاباً مستقلاً **في اخبار الشعراء المتأخرين والقدماء** ذكر فيه « كل من غلب عليه الشعر ، فدوّن ديوانه ،وشاع بذلك ذكره وشأنه ،ولم يشتهر برواية الكتب وتأليفها والآداب وتصنيفها . »(١) ولكن هذا الكتاب قد فقد وبقي **معجم الادباء** خلواً من أخبار الشعراء.

وقد رتب ياقوت كتابه على حروف المعجم أيضاً . وكان شديد التدقيق في هذا الترتيب يراعيه في تتابع التراجم ، كما يراعيه في ترتيب أحرف اسم الأديب واسم أبيه . واذا اتفقت أسماء عدة رجال وأسماء آبائهم قدّم من تقدمت وفاته. وكان ياقوت دقيقاً أيضاً في ذكر مصادره وصرح بذلك في مقدّمة كتابه فقال : « وأثبت مواضع نقلي ومواطن أخذي من كتب العلماء المعوّل في هذا الشأن عليهم ، والمرجوع في صحة النقل اليهم »(٢)

ويغلب على الظن أن ياقوتاً ألف كتابه في أواخر حياته وأنه لم يُتح له تبييضه والفراغ منه . فمقدمة الكتاب تنبيء بأن المؤلف كتبها والكتاب

---

(١) معجم الادباء ج ١ ، ص ٥٠

(٢) معجم الادباء ج ١ ، ص ٤٩ ـ ٥٠

مايزال مسوَّدة لم تهذب وتنقح وتبيض ، وأنه كان أقسم ألاّ يسمح بإعارة الكتاب مادام في مسودته ، ولعله ابقى كتابه على هذا الشكل كي يبرّ بقسمه ويمنع الكتاب عن طالبيه . فقد كان شديد الحرص عليه لايسمح بنسخه ،لانه كان منه ـ على حدّ قوله ـ بمنزلة الروح في جسد الجبان[١] .

وقد وعد ياقوت في مقدمة كتابه أن يفرد في آخر كل حرف فصلاً يذكر فيه من اشتهر بلقبه من الأدباء على ذلك الحرف ، من غير أن يورد شيئاً من أخباره فيه ، وقصده من ذلك أن يدل على اسم صاحب اللقب واسم أبيه ليطلبه القارىء في موضعه[٢] . ولكننا لانجد في الكتاب شيئاً من هذا . فإذا أضفنا الى ماتقدم أن النقص يعتور الكتاب في مواضع متعددة جاز لنا أن نفترض ماقدمناه من أن المؤلف لم يتح له أن يتمّ كتابه نهائياً وأن الموت قد عاجله عن إتمامه ؛ إذ أنه مات ولم يتجاوز الخمسين من سنيه.

والكتاب ، بعد ، اضخم معجم نملكه للأدباء على اختلاف اختصاصهم فهو يلخص معظم الكتب التي ذكرناها في هذا الفصل ويتمّمها ويتوجها ، ولذلك كان أول المراجع في موضوعه وأكثرها تداولاً .

❀ ❀ ❀

هذه اشهر الكتب المصنفة في تراجم الأدباء . وهي كما رأينا مختلفة من حيث الموضوع ومتباينة من حيث الخطة . وإذا كان هنالك مايؤخذ

---

(١) معجم الأدباء : ج ١ ، ص ٥٨

(٢) « « : ج ١ ، ص ٨١

على هذه التراجم فهو تشتت المعلومات فيها وعدم اطرادها على نسق صحيح ؛ إذ المستحسن في تدوين التراجم أن تطرد فيها الاخبار على نهج منطقي فتتناول حياة الشخص المترجم له وتتابع آثاره في طفولته حتى وفاته، وهذا مالا نجده أثراً في تراجم أدبائنا كما حفظتها لنا هذه الكتب. كما أنه مما يؤخذ على هذه الكتب ، ولاسيما المتأخرة منها، ضعف الاصالة فيها أو فقدانها تماماً ، إذ أنها في كثير من الاحيان يكرر بعضها بعضاً .

ولكن مهما يكن من خطر هذه المآخذ فإن هذه الكتب تبقى من أهم مراجعنا ومصادرنا في الدراسات الادبية.

❀ ❀ ❀

ونختم هنا هذا الفصل. وقد كان بودّنا ان نشير قبل ختامه إلى كتاب التراجم المعروف **وفيات الاعيان** لمؤلفه المؤرخ المشهور ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، وأن نشير أيضاً الى كتب التراجم الاخرى التي ألفت تتمة أو توسعة لهذا الكتاب: مثل كتاب **فوات الوفيات** لمحمد بن شاكر الكتبي المتوفى نحو سنة ٧٦٤هـ ، وكتاب **الوافي بالوفيات** لصلاح الدين الصفدي المتوفى في السنة ذاتها ، وهي كتب يكثر الرجوع اليها للبحث فيها عن تراجم الادباء عامة لأنها تشتمل على عدد وفير منها . ولكننا آثرنا ذكر هذه الكتب في الباب الثالث من هذا الكتاب ، لأنها مصنفات في التراجم عامة لا في تراجم الأدباء ؛ فهي من هذه الناحية أشد صلة بكتب التاريخ .

ينتهي هنا الجزء الأول من هذا الكتاب

ويليه الجزء الثاني

وأوله :

الباب الثالث : التأليف في التاريخ

فهرس اسماء الكتب

ذكرنا في هذا الجدول أسماء الكتب التي ورد ذكرها في هذا الجزء مرتبة على حروف المعجم . وأشرنا بنجمة (*) الى الكتب التي كانت موضع دراسة أو حديث خاص في هذا الكتاب :

اسم الكتاب ومؤلفه	الصفحة
الابل ، للاصمعي	١٥
أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء ، لياقوت	١٨٠
أخبار النحويين ، لابن درستويه	١٧١
أدب الكاتب ، لابن قتيبة	١٠٦
إرشاد الأريب ، لياقوت	١٧٨
* أساس البلاغة ، للزمخشري	٣٠
أسماء الوحوش وصفاتها ، للأصمعي	١٥
الأشربة ، لابن قتيبة	١٣٢
* الأصمعيات ، للأصمعي	٨٩
الأضداد ، للأصمعي	١٦
الأضداد ، لأبي حاتم السجستاني	١٦
الأضداد ، لابن السكيت	١٦
* الأغاني ، لابي الفرج الأصبهاني	١٥٦
* الألفاظ ، لابن السكيت	٤٦
* الألفاظ الكتابية ، للهمذاني	٥٠

اسم الكتاب ومؤلفه	الصفحة
أمالي ابن الشجري	١٤٥
أمالي السيد المرتضى	١٤٥
❁ أمالي القالي	١٤٠
❁ إنباه الرواة، للقفطي	١٧٥
❁ بغية الوعاة ، للسيوطي	١٧٦
❁ البيان والتبيين . للجاحظ	١١٩
تاج العروس ، للزبيدي	٣٨
التهذيب ، للازهري	٢٥
تأويل الرؤيا ، لابن قتيبة	١٣٢
❁ جمهرة أشعار العرب ، للقرشي	٩٠
❁ جمهرة اللغة ، لابن دريد	٢٦
❁ جواهر الالفاظ ، لقدامة بن جعفر	٥٤
❁ حماسة ابن الشجري	١٠٢
حماسة ابن فارس	٩٨
❁ حماسة ابي تمام	٩٥
❁ حماسة البحتري	٩٩
حماسة البياسي	٩٨
حماسة الخالديين	٩٨
❁ الحيوان ،للجاحظ	١١٢
خلق الانسان ، للأصمعي	١٥
الخيل ، للأصمعي	١٥
دمية القصر للباخرزي	١٦٦
❁ ديوان الهذليين ، للسكري	٩٣
❁ الذخيرة ، لابن بسام	١٦٨

اسم الكتاب ومؤلفه	الصفحة
الرحل والمنزل ، لابن قتيبة	١٥
زهر الآداب ، للحصري القيرواني	١٤٥
زينة الدهر ، للحظيري	١٦٧
الشاء ، للأصمعي	١٥
شرح حماسة أبي تمام ، للشنتمري	٩٩
» » » » ، للبيهقي	٩٩
» » » » ، للعكبري	٩٩
» » » » ، للعسكري	٩٨
» » » » ، للآمدي	٩٨
» » » » ، للصولي	٩٨
» » » » ، لابن جني	٩٨
» » » » ، للمرزوقي	٩٩
» » » » ، للتبريزي	٩٩
» » » » ، للميكالي	٩٩
❁ الشعر والشعراء ، لابن قتيبة	١٥٢
شفاء الغليل ، للخفاجي	٤١
صبح الأعشى ، للقلقشندي	١٤٥
❁ الصحاح ، للجوهري	٣٢
❁ طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين ، لابن سلام	١٤٨
طبقات النحويين البصريين واخبارهم ، للمبرد	١٧١
طبقات النحاة البصريين ، للسيرافي	١٧١
طبقات النحويين واللغويين ، للزبيدي	١٧١
❁ العقد الفريد ، لابن عبد ربه	١٣٥
❁ العين ، للخليل بن احمد	٢١

اسم الكتاب ومؤلفه	الصفحة
❁ عيون الأخبار ، لابن قتيبة	١٣٠
فعلت وأفعلت ، للزجاج	١٧
فعل وأفعل ، لقطرب	١٧
❁ فقه اللغة ، للثعالبي	٥٨
فوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبي	١٨٢
❁ القاموس المحيط للفيروز ابادي	٣٧
قلائد العقيان ، لابن خاقان	١٧٠
❁ الكامل ، للمبرد	١٢٥
اللبأ واللبن ، للأصمعي	١٥
❁ لسان العرب ، لابن منظور	٣٦
❁ مجمل اللغة ، لابن فارس	٢٨
المحكم ، لابن سيده	٢٥
مختار الصحاح ، للرازي	٣٤
❁ مختارات ابن الشجري	١٠٣
مختصر العين للزبيدي	٢١
❁ المخصص ، لابن سيده	٦٣
مراتب النحويين ، لابي الطيب اللغوي	١٧١
المصباح المنير للفيومي	٣١
❁ المطر ، لابي زيد الأنصاري	١٩
مطمح الأنفس ، لابن خاقان	١٧٠
❁ معجم الأدباء لياقوت ، (انظر : ارشاد الأريب)	
❁ معجم الشعراء للمرزباني	١٦٠
المعرب للجواليقي	٤١
❁ المفضليات ، للمفضل الضبي	٨٥

اسم الكتاب ومؤلفه	الصفحة
❁ مقاييس اللغة ، لابن فارس	٢٨
المقتبس في اخبار النحويين واللغويين ، المرزباني	١٧١
مقدمة ابن خلدون	١٠٥
ملحق المعاجم العربية ، لدوزي	٤٠
❁ المؤتلف والمختلف ، للامدي	١٦١
النبات والشجر ، للأصمعي	١٥
النخل والكرم ، للأصمعي	١٥
❁ نزهة الألباء ، للأنباري	١٧٤
نفح الطيب ، للمقري	١٧٠
❁ النوادر ، لأبي زيد الأنصاري	١٢
نهاية الأرب ، للنويري	١٤٥
النهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير	٣١
الهمز ، لابي زيد الأنصاري	١٦
الوافي بالوفيات ، للصفدي	١٨٢
وفيات الأعيان ، لابن خلكان	١٦٨
❁ يتيمة الدهر ، للثعالبي	١٦٢

مصادر البحث في هذا الجزء

إن مصادر البحث الرئيسية في هذا الجزء هي الكتب التي ورد ذكرها في في الجدول السابق ، مضافاً اليها الكتب التالية :

الاعلام لخير الدين الزركلي . الطبعة الاولى سنة ١٩٢٧ م .

تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (بالالمانية) .

تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان . الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٦ م .

دائرة المعارف الاسلامية (النسخة الفرنسية) .

ضحى الاسلام لاحمد أمين . ثلاثة أجزاء . الطبعة الاولى سنة ١٩٣٣ - ١٩٣٦

ظهر الاسلام لاحمد أمين . ثلاثة أجزاء . الطبعة الاولى سنة ١٩٤٥ - ١٩٥٣

فجر الاسلام لاحمد أمين . جزء واحد . الطبعة الثانية سنة ١٩٣٣ .

الفهرست ، لابن النديم . طبعة المكتبة التجارية بمصر سنة ١٣٤٨ هـ .

كشف الظنون لحاجي خليفة ؛ الطبعة التركية سنة ١٩٤١ .

معجم المطبوعات العربية ، لسركيس .

المزهر ، للسيوطي ، طبعة بولاق سنة ١٢٨٢هـ .

النقد الشعري عند العرب من نشأته حتى نهاية القرن الهجري الخامس ، للمؤلف (بالفرنسية) .

فهرس الأعلام

ذكرنا في هذا الفهرس الأعلام التي وردت تراجم أصحابها في حواشي هذا الجزء، مرتبةً على حروف المعجم، وقد راعينا العلم الذي اشتهر به الشخص سواء كان اسماً أو كنية أو لقباً:

	رقم الصفحة	رقم الحاشية
الآمدي (الحسن بن بشر)	١٦٠	٢
ابن الأثير (المبارك بن محمد)	٣١	١
ابن الأعرابي (محمد بن زياد)	٦٤	١٠
ابن بسام (علي بن بسام)	١٦٨	١
ابن جنّى (عثمان بن جنيّ)	٢٤	١
ابن دريد (محمد بن الحسن)	٢٦	١
ابن السكيت (يعقوب بن اسحق)	٤٥	٤
ابن سلاّم الجمحي (محمد بن سلام)	٨١	٧
ابن سيده (علي بن اسماعيل)	٢٥	٢
ابن الشجري (هبة الله بن علي)	١٠٢	١
ابن عبد ربه (أحمد بن محمد)	١٣٥	٣
ابن فارس (أحمد بن فارس)	٢٨	١
ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم)	٦٤	١٢
ابن منظور (محمد بن مكرم)	٣٤	١
أبو زيد الأنصاري (سعيد بن أوس)	١٢	١

	رقم الصفحة	رقم الحاشية
أبو الفرج الأصبهاني (علي بن الحسين)	١٥٦	١
أبو عمرو بن العلاء (زبّان بن العلاء)	٨١	١
الأزهري (أبو منصور محمد بن أحمد)	٢٥	١
الأصمعي (عبد الملك بن قُريب)	١٥	٢
الأنباري (عبد الرحمن بن محمد)	١٧٤	١
الثعالبي (عبد الملك بن محمد)	٥٨	١
ثعلب (أحمد بن يحيى)	٦٤	١
« (« «)	٨٢	٦
الجوهري (اسماعيل بن حماد)	٣١	٣
الحصري القيرواني (أبو اسحق ابراهيم بن علي)	١٤٥	٣
الحظيري (سعد بن علي)	١٦٧	٢
حماد الراوية (حماد بن ميسرة)	٨١	٤
خلف الأحمر (خلف بن حيّان)	٨١	٣
الخليل بن أحمد الفراهيدي	٢١	١
الدينوري (أبو حنيفة أحمد بن داود)	٦٤	٢
الزُبيدي (محمد بن محمد)	١٧١	١
الزجاج (ابراهيم بن السرّي)	١٧	٢
الزمخشري (محمود بن عمر)	٣٠	١
السجستاني (أبو حاتم سهل بن محمد)	٦٤	٦
السكري (أبو سعيد الحسن بن الحسين)	٨٢	١
السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر)	١٧٦	١
الشيباني (أبو عمرو اسحق بن مرار)	٨٢	٢
الطوسي (علي بن عبد الله)	٨٢	٤
عبد الله بن عباس	٧٩	٣

	رقم الصفحة	رقم الحاشية
عقيل بن أبي طالب	٧٩	٢
العماد الكاتب (محمد بن محمد)	١٦٧	٣
الفراء (يحيى بن زياد)	٦٤	٣
الفيروز ابادي (محمد بن يعقوب)	٣٤	٢
الفيومي (أحمد بن محمد)	٣١	٢
القالي (أبو علي اسماعيل بن القاسم)	١٤٠	٢
قدامة بن جعفر	٥٤	١
قطرب (محمد بن المستنير)	١٧	١
القفطي (علي بن يوسف)	١٧٥	١
كراع النمل (علي بن الحسين الرؤاسي)	٦٤	٨
اللحياني (علي بن حازم)	٦٤	١١
الليث بن المظفّر	٢٣	١
المبرّد (محمد بن يزيد)	٦٤	٧
محمد بن حبيب	٨٢	٣
مخرمة بن نوفل	٧٩	١
المرتضى (الشريف علي بن الحسين)	١٤٥	١
المرزباني (محمد بن عمران)	١٦٠	١
النضر بن شميل	٦٤	٩
الهمذاني (عبد الرحمن بن عيسى)	٥٠	٢
هدبة بن خشرم	٧٨	١
ياقوت الرومي (ياقوت بن عبد الله)	١٧٨	١

فهرس مواد الجزء الاول

الصفحة

بين يدي هذا الكتاب ٣

المقدمة ٥

الباب الاول : التأليف في اللغة ٧

تمهيد في فوائد المعاجم اللغوية وأنواعها ٩

الفصل الاول : معاجم الالفاظ ١١ — ٤٣

المرحلة الاولى لتدوين ألفاظ اللغة ـ تأليف الرسائل اللغوية ـ وضع المعاجم ـ ترتيب المعاجم بحسب مخارج الحروف ـ ترتيبها بحسب الترتيب الهجائي مع مراعاة أوائل الكلمات ـ ترتيبها مع مراعاة أواخر الكلمات ـ أشهر المعاجم وأكثرها تداولا ـ بعض الملاحظات على المعاجم العربية القديمة .

الفصل الثاني : معاجم المعاني ٤٤ ـ ٧٢

تأليف بعض الرسائل الصغيرة في الموضوع ـ تأليف بعض الكتب الواسعة : كتاب (الالفاظ) لابن السكيت ، كتاب (الالفاظ الكتابية) للهمذاني كتاب (جواهر الالفاظ) لقدامة بن جعفر ـ وضع

الصفحة

معاجم المعاني والكلام على (فقه اللغة) للثعالبي
و (المخصص) لابن سيده .

الباب الثاني : التأليف في الادب ٧٣ .

تمهيد في حصر موضوعات الباب ٧٥

الفصل الاول: المجموعات الشعرية القديمة ٧٧—١٠٤

رواية الشعر في الجاهلية وصدر الإسلام ـ نشاط الرواية في عصر التدوين ـ جمع الدواوين وتصنيف المختارات ـ أشهر المجموعات الشعرية المصنفة في القرنين الثاني والثالث : (المفضليات) ؛ (الاصمعيات) ؛ (جمهرة اشعار العرب) ؛ (ديوان الهذليين) ؛ (حماسة) أبي تمام ؛ (حماسة) البحتري ؛ (حماسة) ابن الشجري و (مختاراته) .

الفصل الثاني : كتب الثقافة الادبية العامة ١٠٥—١٤٥

مفهوم كتب الادب وصفاتها ـ أشهر مؤلفي هذه الكتب في القرن الثالث : الجاحظ و كتاباه (الحيوان) و (البيان والتبيين) ؛ المبرد و كتابه (الكامل) ؛ ابن قتيبة و كتابه (عيون الاخبار) ـ أشهر مؤلفي كتب الادب في القرن الهجري الرابع : ابن عبدربه و كتابه (العقد الفريد) ؛ القالي و كتابه (الامالي) ـ واستمرار حركة تأليف كتب الادب بعد القرن الرابع .

الفصل الثالث : كتب تراجم الادباء ١٤٦ — ١

عناية المؤلفين بتدوين التراجم ـ أشهر الكتب المصنفة

في تراجم الشعراء : (طبقات الشعراء) لابن سلام ؛ (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ؛ (الاغاني) لأبي الفرج الاصبهاني؛(معجم الشعراء)للمرزباني؛(المؤتلف والمختلف) للامدي ؛ (يتيمة الدهر) للثعالبي ؛ (الذخيرة) لابن بسام ـ أشهر الكتب المصنفة في تراجم اللغويين والنحاة : (طبقات النحويين) للزبيدي ؛ (نزهة الالباء) لابن الانباري ؛ (انباه الرواة) للقفطي ؛ (بغية الوعاة) للسيوطي ـ أشهر الكتب المصنفة في تراجم الادباء عامة: (معجم الادباء) لياقوت ـ بعض الملاحظات العامة على هذه الكتب .

فهرس أسماء الكتب ١٨٤

مصادر البحث ١٨٩

فهرس الأعلام ١٩٠

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩	٥	ولكنه قسم كل كتاب بدوره	ولكنه قسم كلا منهما
٣٤	حاشية(٤)، سطر(٢)	بن	ابن
٤٧	١٠	ولا تعقد	ولا تقعد
١١١	١٢	وأشبع حواسه	وأشبع منها حواسه
١١٣	١٠	روؤس	رؤوس
١١٣	حاشية(٣)، سطر(١)	ألم تر الى الابل	أفلا ينظرون الى الابل
١١٦	٧	القران	القرآن
١٢٤	١٠	لحقت	لخفت
١٦٨	١٣	الآفاتِ	الآفاقِ

DATE DUE
JAFET LIB.
30 MAY 2005
Circulation Dept. 3
JAFET LIB.
21 OCT 2005
Circulation Dept. 2

الطرابلسي ،امجد
نظرة تاريخية في حركة التأليف عند ال
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031782

808.06
Ta176nA
v.1
c.1